

من تراث العلامة الندوي

خطبات خير محييين

إلى الأمراء والرؤساء

للعامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي

إعداد
سيد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير



مكتبة دار الفقه والحكمة

سنة ١٤٢٥ هـ

٧٧٣١٥ - ٧٠٧٥



خطاب إلى صرحية

إلى الأمراء والرؤساء

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء المجابي
ص.ب. ٣١١ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف ديتوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب. ١١٣ / ٦٣١٨ - تلفاكس ٠١٨٠٧٨٥٧ - ٣٢٠٤٤٥٩



للطباعة والنشر والتوزيع

من تراث العلامة الندوي

خطابات صريحة

إلى الأمراء والرؤساء

لِلْعَلَّامَةِ الْإِمَامِ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ الْحُسَيْنِيِّ النَّدَوِيِّ

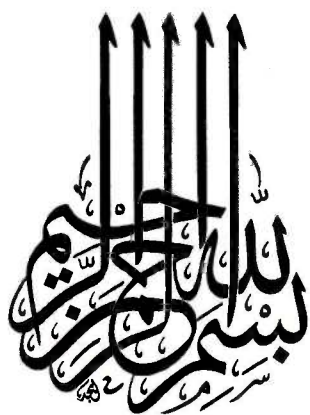
١٣٣٣ - ١٤٢٠ هـ

إعداد

سيد عبد الماجد الغوري

دار الكتب

دمشق - بيروت



مقدمة الكتاب

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ! فإنّ الداعي الذي يشغل نفسه بالدعوة إلى الله ، ويعيش للإسلام وبه ، ويحمل في جنبه قلباً متألماً ، يرتفع عن جميع الأغراض الدنيوية والمصالح الشخصية ، ويكون صاحب فكرٍ نيرٍ ، ويسعى في رفع شأن المسلمين وإعادة مجدهم ، وإصلاح أحوالهم خطابةً وكتابةً في ضوء ما جاء في الكتاب والسنة ، وتوجيه من الشريعة السماوية ، ويريد الامثال بما أمر الله به في تبيانهِ قائلاً : ﴿ كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة : ٨] لا يستطيع أن يركز جهوده الدعوية والإصلاحية على البلد الذي وُلد فيه ، والمجتمع الذي عاش فيه ، ويقصر مساعيه على تلك البيئة المحدودة ضيقة الإطار .

بناءً على ذلك شعر العلامة السيّد أبو الحسن علي الحسني الندوي - رحمه الله - بالحاجة الماسة إلى توجيه رسائل دعوية مُخلصة إيجابية إلى بعض أمراء البلاد الإسلامية العربية يلفت فيها أنظارهم إلى ضرورة التمسك بحبل الله ، والتثبت بنبوة محمد ﷺ ، والاستئانة بسير الخلفاء الراشدين ، وإصلاح بلادهم ، وإيجاد مجتمع مثالي فيها إلى أفضل حد ممكن ، وسدّ الثغرات التي تحول دون تأييد الله ونصره ، وإلى الإنابة إليه ، والاستغفار منه ، فكتب إليهم بين حين وحين هذه الرسائل التي تليق بمقامهم الجليل .

وضمن هذه الرسائل بعض رسائله الموجهة إلى رؤساء وزراء الهند ، قدّم فيها إليهم نصائحه المخلصة ، وعالج قضايا مسلمي الهند المهمة ، ضممتها هنا يتلك الرسائل نظراً إلى أهميتها البالغة وفائدتها الكبيرة ، والتي تستحقّ

أن يقرأها قادة البلاد ورؤساء الحكومات والمسؤولون الإداريون والمثقفون المعاصرون .

وقد جمعت هذه الرسائل من بعض مؤلفات العلامة ورسائله في كتاب مستقلّ ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد .

كتبه المعتر بالله تعالى

٩/شوال/١٤٢١هـ

عبد الماجد الغوري

٤/كانون الثاني/٢٠٠١م

ملاح من حياة

العلامة السيّد أبي الحسن علي الحسني الندوي وشخصيته

اسمه ونسبه وأسرته :

• علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أول من استوطنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المديني (٦٧٧هـ) .

• أبوه العلامة الطبيب السيّد عبد الحي الحسني الذي استحق بجدارته لقب « ابن خلكان الهند » لمؤلفه القيم « نزهة الخواطر » في ثمانى مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » .

• أمّه - رحمها الله - كانت من السيّدات الفاضلات ، المربيات النادرات ، المؤلفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته :

• أبصرَ النورَ في ٦ محرم ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م بقرية « تكية كلان » الواقعة قرب مديرية رائى بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش) .

• بدأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دخل في الكُتّاب حيث تعلّم مبادئ اللغتين (الأردوية والفارسية) .

• توفي أبوه عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرة ، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الندوي .

• بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسّع فيه وتخصّص على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٥م .

• التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سنّاً ، ونال منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمّة في اللغة العربية والأردوية ، ممّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتعلّم الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

• التحق بدار العلوم - ندوة العلماء عام ١٩٢٩م وقرأ الحديث الشريف (صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلامة المحدث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلامة المفسر المشهور أحمد علي اللاهوري في لاهور عام ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م ، وحضر دروس العلامة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

جهوده العلمية ونشاطاته الدعوية :

• انخرط في سلك التدريس من عام ١٩٣٤م ، وعُيّن أستاذاً في دار العلوم

ندوة العلماء العلماء لمادتي التفسير والأدب ، وخلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلات العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرّفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكراتها عن كتب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء العرب والزعماء السياسيين .

• قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩ م ، تعرّف فيها على الشيخ المرّبي العارف بالله عبد القادر الرّأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، وكان هذا التّعرف نقطة تحوّل في حياته ، وبقِيَ على الصّلة حتّى وافاهما الأجل المحتوم ، وتلقّى التّربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرّأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتأسّى بالشيخ محمد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقصّى زمنًا طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتّربية والإصلاح والتّوجيه الديني في الهند وخارجها .

• أسّس مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣ ، وأسّس حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١ م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم - ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩ م .

• عُيّن أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١ ، (ولا يزال يترأس أمانتها إلى يوم وفاته) .

• شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠ م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤ م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢ م .

أهم مؤلفاته :

• نشر له أول مقال بالعربية في مجلة « المنار » للعلامة السيّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١ م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد وكان عمره - آنذاك - الأربعة عشر عاماً .

- ظَهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧م يحمل اسمه « سيرة أحمد شهيد » ونال قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .
- بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَرَ أوّل كتاب فيها بعنوان « مختارات من أدب العرب » عام ١٩٤٠ ، و « قصص النبيين » للأطفال و « القراءة الراشدة » عام ١٩٤٤م . وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية .
- ألّف كتابه المشهور « ماذا حَسر العالم بانحطاط المسلمين » عام ١٩٤٤م .
- دعيّ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦م ، وألقى محاضرات بعنوان « التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي » نُشرت بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .
- ألّف كتابه حول القاديانية بعنوان « القادياني والقاديانية » عام ١٩٥٨م ، وكتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأفطار الإسلامية » عام ١٩٦٥م وكتابه « الأركان الأربعة » عام ١٩٦٧م ، و « السيرة النبوية » عام ١٩٧٦م ، و « العقيدة والعبادة والسلوك » عام ١٩٨٠م ، و « المرتضى » في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨م .
- شارك في تحرير مجلة « الضياء » العربية الصادرة من دار العلوم - ندوة العلماء عام ١٩٣٢ ومجلّة « الندوة » الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠م ، وأصدَرَ مجلّة باسم « تعمير حيات » في الأردوية عام ١٩٤٨م ، وكتب مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمّات المجلّات العربية الصادرة من مصر ودمشق ك : « الرّسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيات و « الفتح » للأستاذ محب الدين الخطيب و « حضارة الإسلام » للدكتور مصطفى السباعي و « المسلمون » للدكتور سعيد رمضان المصري .
- أشرفَ على إصدار جريدة « نداي ملّت » الأردوية عام ١٩٦٢م ،

وكذلك أشرف على مجلة « البعث الإسلامي » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥م وجريدة « الرائد » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩م ومجلة « تعمير حيات » الأردنية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م ، وكلها تصدر من دار العلوم - ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند) .

رحلاته :

• سافر إلى الشرق والغرب مرات داعيةً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابي البناء في كل مجال ، جواباً للآفاق في سبيل الله ، محاضراً ، ومحدثاً ، ومهاوياً ، واعظاً وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية ، والمؤسسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيها^(١) .

تقدير وتكريم :

- انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجَمِّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها .
- اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م .
- اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١م .
- اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠م ، لمؤلفه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .
- منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م .

(١) انظر للاطلاع على رحلاته كتاب « رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي محاضراته - مشاهداته - لقاءاته - انطباعاته » جمع وترتيب وتعليق للمؤلف ، صدر من دار ابن كثير دمشق - بيروت عام ٢٠٠١م .

- اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣ م .
- اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمان (الأردن) .
- اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤ م .
- أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومسايعه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩ م في إستانبول « تركية » .
- اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩ هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقُدِّم إليه الجائزة ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

- تولّى العلامة الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم - ندوة العلماء (التي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتفوَّقتْ على معظم جامعات العالم التي تهتم بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع) .

- رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .
- رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند) .
- رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .
- رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند .
- رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) .

- عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .
- عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة .
- عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .
- عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
- عضو مجمع اللغة العربية الأردني .
- عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن .
- عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط .
- عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
- عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان) .
- عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند) .
- وعدا ذلك تولّى العلامة الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه .

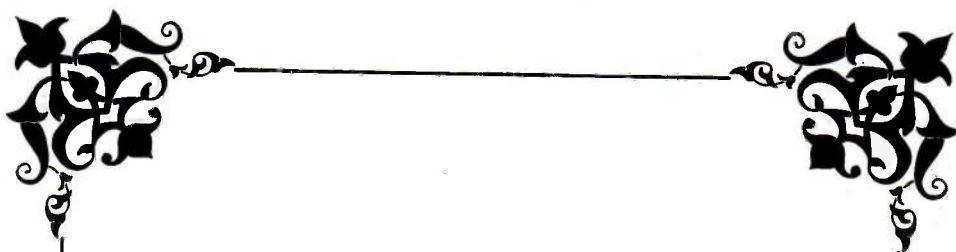
وفاته :

كان - العلامة الندوي - في حالة صحية جيدة قبل يومين من وفاته ، قضى عشرين يوماً من رمضان المبارك في مقره بدار العلوم - ندوة العلماء برفقة من أصحابه وزوّاره الذين يصومون معه في كل عام ، ولكنه في العشرين من الشهر غادر لكهنؤ إلى مسقط رأسه « تكية كلان » (الواقعة في مديرية « رأي بريلي ») ، لكي يقضي هناك العشرة الأخيرة مع أفراد عائلته ، ولما كان يوم الجمعة (وهي جمعة الوداع في العالم الإسلامي كله) تهيأ لصلاة الجمعة ، واستحمّ ، وغَيَّرَ الملابس ، وتطيّب (وكان في ذلك كله في غاية الاهتمام) فبدأ يتلو سورة الكهف قبل أن يقصد إلى المسجد إذ فاجأته نوبة قلبية ، توقف

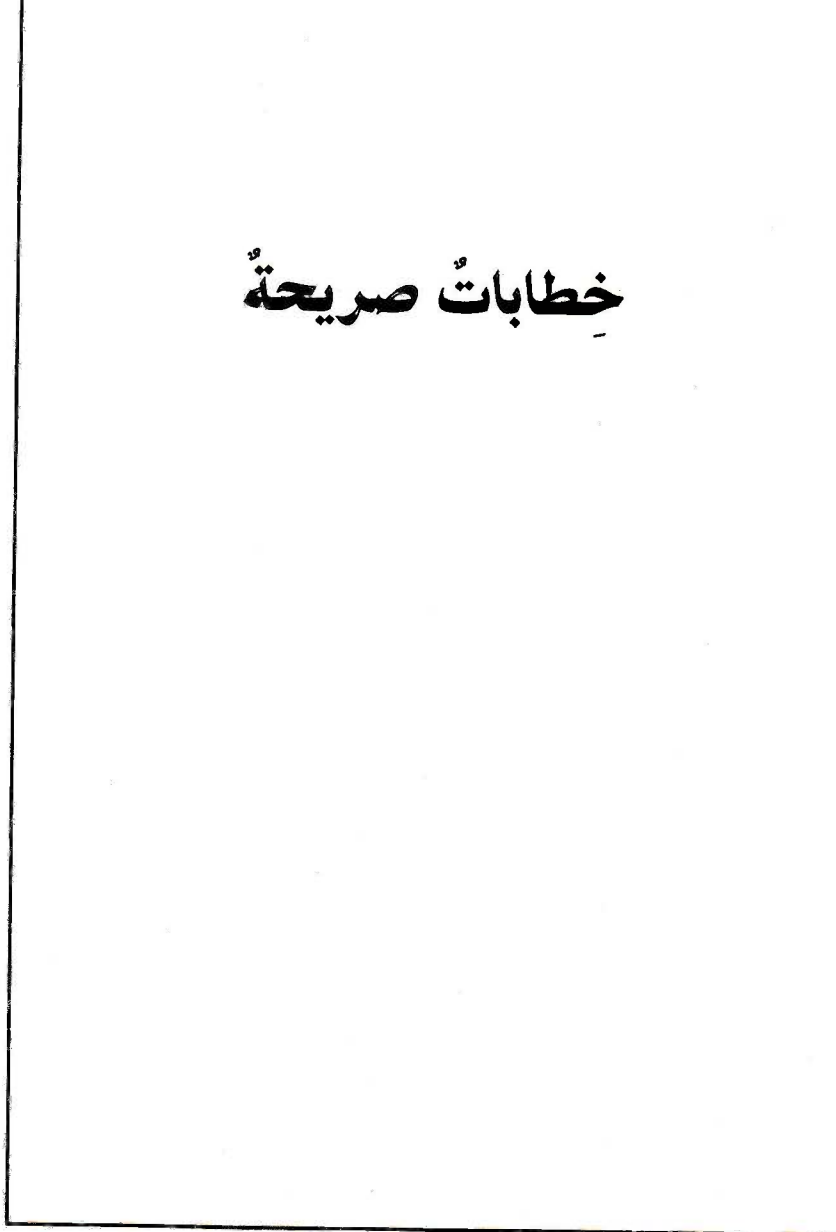
معها القلب وطارت الروح إلى بارئها ، وانضمَّ - رحمه الله - إلى صفوف أولئك الرجال من المؤمنين الذين أشاد الله بذكرهم في تنزيله ، فقال : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر له مغفرة شاملة^(١) .

(١) انظر كتاب المؤلف « أبو الحسن علي الحسيني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب » ، للاطلاع على حياة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي ، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية ومآثره القيمة في مجال الأدب وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية وتعريف لأهم مؤلفاته ، صدر عن « دار ابن كثير دمشق - بيروت عام ١٩٩٩ م » .



خطابات صريحة



إلى صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد العزيز
(ولي عهد المملكة العربية السعودية)

بين الجباية والهداية

زار العلامة الندوي الحجاز والحرمين الشريفين لأول مرة في سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) لأداء الحج ، وطالت إقامته في الربوع المقدسة ، فمكث فيها ستة شهور .

وكانت الحكومة والبلاد في ذلك الحين تجتاز مرحلة انتقالية من البساطة والتقشف إلى التوسع الحضاري ورفاهية البلاد ، وتقليد الحكومات الزمنية ، وقد بدت طلائع هذا التحول في البلاد والمجتمع ، فرأى العلامة من واجبه - كمسلم مخلص لهذه البلاد ومستقبلها ، وكدارس للتاريخ وفلسفته ، وطبائع الأمم والحضارات - أن يلفت نظر الذين يملكون زمام الأمور ، وقادة البلاد في المستقبل ، إلى مسؤوليتهم ، ويفضي إليهم بالأسلوب الذي يفكر فيه من يهتم بأمر الإسلام والمسلمين ، ويحب هذه الحكومة ويقدر ما وفقت له من إصلاحات كبيرة ، وحققته من إنجازات خطيرة ، فرأى العلامة أن يخاطب بذلك ولي عهد المملكة يومئذ : صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد العزيز ، فكتب هذه الرسالة الضافية إليه ، وقد قرأها سمو ولي العهد وأمعن النظر فيها وإليك نص هذه الرسالة بكامله :

الدول والحكومات قسمان : دولة شعارها الجباية ، ودولة شعارها الهداية ، وكلُّ لها طابعٌ خاص ، ونفسية خاصة ، ورجالٌ ممتازون ، ولكلُّ نتائج متميزة .

فميزان الأشياء ، ومناط الأحكام في دولة الجباية هو تضخم الميزانية ، وكثرة الدخل والإيراد ، ورفاهية رجال الحكومة ، واحتفال الحضارة وزهو المدنية ، وإن كان ذلك بامتصاص دماء الفقراء ، وشقاء الفلاحين والعملة ، والضرائب المجحفة ، والمكوس المرهقة ، فلا يعني هذا الضرب من الحكومة إلا بما يزيد في مواردها وماليتها ، وبما يُهيئ لها أسباب الفخار ، والزينة ، والأبهة ، بما يُهيئ للأمراء ، والوزراء ، وأبنائهم وأبناء أبنائهم ، والمتصلين بهم ورجال الحكومة ، وأسرهم ، وخدمهم أسباب الترف والتنعم والبذخ ، وبما يبنون قصوراً فاخرة ، ويشترون به أملاكاً واسعة في داخل البلاد وخارجها .

تغفل هذه الحكومة تربية الجمهور الدينية ، والخلقية ، وتعطل الحسبة ، والرقابة على الأخلاق والنزعات ، وتتغافل عن كلِّ ما ليس بسبيلها ، وما لا يجر عليها فائدة مالية ، أو قوة سياسية ، وقد تبيح منكراً ، أو محرماً إذا كانت تجني منه نفعاً ، وتحرم مباحاً إذا كانت تخاف منه خطراً سياسياً ، أو خسارة مالية ، ولا يزال العجشع والنهامة للمال تدفعها ، وتزين لها خطتها ، حتى تفرض ضرائب على العبادات ، وعلى الموت ، والحياة ، وهكذا تتحول من حكومة ساهرة على مصالح الجمهور وراحتهم ، ومن مربية وحارسة للأمة إلى شركة تجارية كبيرة ، لا يهئها إلا جمع الأموال وزيادة الأرباح .

أمَّا الدولة التي شعارها الهداية : فمهمتها الدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومعيارها تحسُّن أخلاق الجمهور ، وسموٌ روحهم ، وتحليلهم بالفضائل ، وإقبالهم على الآخرة ، وزهدهم في الدنيا ، والقناعة في المعيشة ، واجتنابهم المحرمات ، والمعاصي ، وتنافسهم في

الخيرات ، ولو كان ذلك على حساب ميزانيتها وخسارة مالياتها ، فتتصب الوعاظ ، وترسل الدعاة ، وتشجع الحسبة ، وتمنع الخمر ، وتنكر على الفجور ، وتحرم الملاهي ، والمعازف ، وتطارد المستهترين ، والخلعاء ، وتمنع كل ما يفسد الناس عقيدتهم ، وأخلاقهم ، ويفسد الحياة المنزلية ، وتغص في حكمها المساجد ، وتقفر الحانات ، ويزدهر الدين ، والتقوى ، وتضمحل المعاصي والجنائيات ، ويقوم أهل الدين والصلاح ، وينشطون ، ويتحمسون ، ويتوارى الفجار ، والملحدون ، وينكمشون . ويكون ما وصفه الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] .

يمتاز جهاز حكومة الهداية بأسره عن جهاز حكومة الجبابة بأسره ، يمتاز عنه في النزعات ، والروح ، والسيرة ، والمعاملة ، والسلوك . فنرى في الأول التطوُّع ، والاحتساب ، وروح الخدمة والإيثار ، والأمانة ، والتضحية ، والوفاء ، بينما نرى في رجال حكومة الجبابة معاكسة القانون ورجاله ، والاجتهاد في معاجزته ، والتفُّلت منه ، والكبر ، والتجبر ، والأثرة ، والخيانة ، والنفاق ، والزور ، وفشو الرشوة ، إلى حدٍّ يدعو الإنسان بين الركن والمقام ألا يتلى منهم ، فلا ينال الإنسان حقه من العدل والراحة ، ولا يتمتع بحقوقه المدنية إلا إذا رضى من ماله لهذا ، وقدم طعمة لذلك . ويستفحل الأمر ، ويجل الخطب ، حتى لا يرى أحد في هذه الحكومة أنَّه خادم أمة ، وأمين حكومة ، لا يعد نفسه إلا جابياً - ولكن لنفسه وعياله - قد منحته الحكومة فرصة جمع الأموال ، فلا يريد أن تفلته هذه الفرصة ، ويتخلف عن قافلة الجبابة الشخصيين ، وقد اشتد بها الجد ، وجدَّ بها السير .

لقد سبق في التاريخ أمثلة لكلٍّ من حكومات الجبابة والهداية . أما حكومات الجبابة : فلا تحتاج إلى تمثيل ، ولا إلى شرح وبيان ، فإنها هي السائدة الفاشية في الماضي والحاضر ، وفي الشرق والغرب ، وقد جرَّها الإنسان ، وعرفها في كل عصر . أما حكومات الهداية : فهي نادرة جداً ، فلنضرب لها مثلاً :

بعث محمد ﷺ ، فدعا الناس إلى الإسلام ، فالتف حوله : ﴿ فَتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [١٣] وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُوكَ عَلَيْهِمْ إِسْلَاطُنَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَكَمْ أَظْلَمَ مِمَّنْ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ [الكهف : ١٣ - ١٥] . وكان هؤلاء الفتيان هدف كل قسوة ، وظلم ، واضطهاد ، وبلاء وعذاب . وقد قيل لهم من قبل : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [٢] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت : ٢ - ٣] فصمدوا لكل ما وقع لهم ، وثبتوا كالجبال ، وقالوا : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [الأحزاب : ٢٢] . حتى أذن الله في الهجرة ، ولم تزل الدعوة تشق طريقها ، وتؤتي أكلها حتى قضى الله أن يحكم رجالها في الأرض ، وقيموا القسط ، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، فقد عرف أنهم إذا تولوا وسادوا ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] .

وهكذا جاءت الدَّعوة بالحكومة كما تأتي الأمطار بالخصب والزرع ، وكما تأتي الأشجار بالفاكهة والثمر ، فلم تكن هذه الحكومة إلا ثمرة من ثمرات هذه الدعوة الإسلامية . ولم تكن هذه العزة والقوة إلا نتيجة ذلك العذاب الذي تحملوه من قريش وغيرهم ، وذلك الهوان الذي لقوه في مكة وغيرها .

جاءت الحكومة بما يتبعها من عزة وشوكة ، ورجال وأموال ، وكنوز وخزائن ، وجباية وخراج ، ورفاهية ونعيم ، وكان المجال واسعاً جداً لجمع الأموال ، وحكم الرجال ، ورفاهية الحال إذ اختاروا طريق الملوك والسلاطين في فرض الضرائب الكثيرة ، والأتاوات المتنوعة ، والمكوس الجائرة .

التفت القوم فإذا دولتهم الوليدة على مفترق الطرق - طريق الجبابة ، وطريق الهداية - هنالك سمعوا هاتفاً يقول : « ويحكم ! إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لم يبعث جبائياً ، وإنما بعث هادياً وأنتم خلفاؤه » فلم يترددوا في إثارة جانب الهداية على جانب الجبابة ، واتخاذ الدعوة والهداية شعاراً ومبدأً لحكومتهم ، فكان ذلك .

لقد علموا أنَّهم لو آثروا جانب الجباية ، وأطلقوا أيديهم في أموال الناس ، واسترسلوا إلى النعيم ، ورتعوا في اللذات ، لم يحل بينهم وبين ذلك أحد ، ولم يقف في سبيلهم واقف . ولكنَّهم علموا أنَّهم لو فعلوا ذلك فقد غشُّوا إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان ، وقضوا نحبهم بدون أن يأكلوا ثمار غرسهم ، لقد خانوا أولئك الذين لم يعرفوا إلا الجهاد ، والتعب ، والجوع ، والسَّغب ، ولقد وصلوا إلى الحكومة على جسر من متاعبهم وإيثارهم ، أفيجوز لهم أن يستغلوها لمصلحتهم ، وشهواتهم ، وأبنائهم ، ويتمرَّغوا في النعيم ، ويُسرفوا في الأكل والشرب ؟ لقد ظلموا إذا عثمان بن مظعون ، وحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وأنس بن النضر ، وسعد بن معاذ ، وكثيراً من رفقتهم الذين لم يروا شيئاً من الفتوح والغنائم ، ولم يشبعوا أياماً متوالية ، وقف القوم ولم يطب لهم الأكل والشرب ، وأرادوا أن يلحقوا بإخوانهم ولم يأخذوا من الدنيا إلا البلاغ .

تأسست دولة الإسلام ، وفتحت فارس ، وبلاد الروم ، والشام ، ونقل إلى عاصمة الإسلام - المدينة المنورة - كنوز كسرى وقيصر ، وانصبت عليها خيرات المملكتين العظيمتين ، وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين وطُرفها ، وزخارفها ما لم يدر قط بخلداهم ، وقد انقضى على إسلامهم ربع قرن ، وهم في شدةٍ وجهدٍ من العيش ، وفي جشوبة المطعم ، وخشونة الملبس ، لا يجدون من الطعام إلا ما يقيم صلبهم ، ومن اللباس إلا ما يقيهم من البرد والحرِّ ، فإذا بهم يتحكمون في أموال الأباطرة والأكاسرة ، فإذا أراد الواحد منهم أن يلبس تاج كسرى وينام على بساط قيصر لفعل ، لقد كانت - والله - هذه محنة عظيمة ، تزول فيها الجبال الراسيات ، وتطير لها القلوب من جوانحها ، وتعمش لها العيون ، ولكنهم سرعان ما فطنوا : أنَّهم ما وقفوا بين الفقر والغنى فحسب ، بل إنهم خيروا بين أن يتنازلوا عن دعوتهم ، وإمامتهم ، ومبادئهم ، وينفضوا منها يدهم فلا يطعموا فيها أبداً ، وبين أن يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية ، وعلى سيرة رجالها اللائقة بخلفاء الأنبياء والمرسلين ، حملة الدعوة المؤمنين المخلصين .

كان لهم أن يؤسسوا ملكاً عربياً عظيماً على أنقاض الدولة الرومية والفرسية ، وينعموا كما نعم ملوكها ، وأمرؤها من قبل ، فقد ورثوا إمبراطوريتين : الفارسية والرومية ، وجمعوا بين موارد دولتين . فإذا كان كسرى يترفه بموارد فارس فقط ، وإذا كان هرقل يبدخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكنه أن يترفه بموارد الإمبراطوريتين ، ويبدخ بذخاً لم يبدخه أحدهما .

كان له ولأصحابه كل ذلك بكل سهولة ، ولكنهم سمعوا القرآن يقول : ﴿ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَذَكَّرَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَفْسَادَ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] .

وكانهم يسمعون نبيهم ﷺ يقول قبل وفاته :

« فوالله لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم »^(١) .

فهتفوا عن آخرهم قائلين :

« اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة ! » وهكذا حافظوا على روح الدعوة الإسلامية وسيرة الأنبياء والمرسلين ، وعاشوا في الحكومة كرجال الدعوة ، وفي الدنيا كرجال الآخرة ، وملكوا أنفسهم في هذا التيار الجارف ، الذي سال قبلهم بالمدينيات والحكومات ، والشعوب والأمم ، وسال بالمبادئ والأخلاق ، والعلوم والحكم .

ما زال الناس يعدون اقتحام المسلمين دجلة بخيلهم وجندهم تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ووصولهم إلى الشط الثاني من غير أن يصابوا في نفس أو مال أو متاع حادثاً غريباً من أغرب ما وقع في التاريخ ، إنَّ الحادث لغريب ، ولكن أشد منه غرابة وأدعى للعجب أنَّ المسلمين في عهد الخلافة الراشدة ،

(١) رواه البخاري ومسلم .

وعصر الفتوح الإسلامية الأولى خاضوا بحر مدينة الروم وفارس وهو مائج هائج ، وعبروه ولم يفقدوا شيئاً من أخلاقهم ، ومبادئهم ، وعاداتهم ، ووصلوا إلى الشطّ الثاني ، ولم تبل ثيابهم ، ولم يزل الخلفاء الراشدون ، وأمراء الدولة الإسلامية من أصحاب النبي ﷺ محتفظين بروحهم ، ونفسيّتهم ، وزهدهم ، وبساطتهم في المعيشة ، وتخشنهم في أوج الفتوح الإسلامية .

حكى الطبري دخول الهرمزان المدينة ، ومواجهته لعمر رضي الله عنه قال : هيئتوا الهرمزان في هيئته ، فألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب ، ووضعوا على رأسه تاجاً يدعى الآذين مكللاً بالياقوت ، وعليه حليته ، كيما يراه عمر والمسلمون في هيئته ، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منزله ، فلم يجدوه فسألوه عنه ، فقل : جلس في المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة ، وانطلقوا يطلبونه في المسجد فلم يروه ، فلما انصرفوا مروا بغلمان من أهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم : ما تلذدكم ؟ تريدون أمير المؤمنين ؟ فإنه نائم في ميمنة المسجد متوسداً برنسه ، وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس ، فلما فرغ من كلامهم ، وارتفعوا عنه ، وأخلوه ، نزع برنسه ، ثم توسد فنام ، فانطلقوا ومعهم النظارة حتى إذا رأوه جلسوا دونه ، وليس في المسجد نائم ، ولا يقظان غيره ، والدرّة في يده معلقة ، فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا ! وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه ، وأصغى الهرمزان إلى الوفد ، فقال : أين حرسه وحجابه عنه ؟ قالوا : ليس له حارس ، ولا حاجب ، ولا كاتب ، ولا ديوان ! قال : فينبغي له أن يكون نبياً . فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء ، وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة ، فاستوى جالساً ثم نظر إلى الهرمزان ، فقال : « الهرمزان » ؟ قالوا : نعم ! فتأمله ، وتأمل ما عليه ، وقال : أعوذ بالله من النار ، وأستعين الله ! وقال : الحمد لله الذي أذل هذا وأشيعه ، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين ، واهتدوا بهدي نبيكم ، ولا تبترنكم الدنيا ؛ فإنها غرارة . فقال الوفد : هذا ملك الأهواز ، فكلّمه ! فقال : لا ، حتى لا يبقى عليه من حليته

شيء ، فرمي عنه بكل شيء عليه إلا شيئاً ليستره ، وألبسوه ثوباً صفيقاً ، فكلّمه^(١) .

ويصف ضرار بن ضمرة عليّ بن أبي طالب في خلافته بعد وفاة عليّ لمعاوية ، ويقول : « إنه ليستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان - والله - غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشّب^(٢) ، كان والله كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتينا ، ويأتينا إذا دعونا ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرحى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، وكأنني أسمعه وهو يقول : « يا دنيا أبي تعرضت ، أم لي تشوقت ؟ هيهات هيهات !! غري غيري ! قد بتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير . آه ! من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق^(٣) ! » .

كان شعار الدولة الإسلامية الأولى الهداية والدعوة إلى الله وخدمة الناس ، فكانت الدولة تخسر أموالاً عظيمة في سبيل الأخلاق والدين ، وكانت إذا خيرت بين أرواح الرجال ومبالغ من المال ؛ اختارت الأرواح ، وخسرت الأرباح ، وتطيب بذلك نفساً ، وتقّرّ به عيناً ، وإذا كان عكس ذلك فكسبت الأموال ، وخسرت الرجال ؛ حزنت لذلك ، وحزن المسلمون كحزنهم على ملك زائل وسلطان راحل ، وقد فضل الخلفاء الراشدون وخامسهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن يدخل المجوس والنصارى في الإسلام ، ويعفوا من الجزية ، فيخسر بيت مال المسلمين مقداراً عظيماً من المال ، ويكسب الدّين

(١) تاريخ الطبري (ج ٤ ص ٣٧) .

(٢) ما جشّب : ما غلظ وخشن .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي ج ١ .

الإسلامي والأمة الإسلامية رجالاً يتخلصون من النار ، وإذا كسب وريح بيت المال على حساب الإسلام حزنوا حزناً شديداً .

حدث الطبري عن زياد بن الزبيدي ، قال : « جمعنا في مصر ما في أيدينا من السبايا ، واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا ، ثم نخيره بين الإسلام وبين النصرانية ، فإذا اختار الإسلام ؛ كبرنا تكبيراً هي أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية ، قال : ثم نحوزه إلينا . وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه إليهم ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً ، حتى كأنه رجل خرج منا إليهم^(١) » .

وهكذا انتشر الإسلام ، وانتشرت الأخلاق الفاضلة في عقود من السنين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وتغلغت الدعوة الإسلامية في أحشاء المجتمع البشري . لم يتمتع العالم الإسلامي بخلافة عمر بن عبد العزيز إلا سنتين وبضعة شهور ، ولكن بحرصه على الدعوة ، ومحافظة على شعار الهداية ، وسيرة خلفاء الأنبياء عليهم السلام تمكن من التأثير في القلوب والعقول ، وقلب تيار المدينة ، وإظهار الدين وإخماد الكفر والفسق ، والقضاء على رسوم الجاهلية ، ما لم تتمكن منه دول إسلامية طويلة الأعمار لتراوحها بين الهداية والجبابة ، وتفضيلها الجبابة في أكثر الأحيان على الهداية .

وكانت المدن الإسلامية الكبرى وعواصم الإسلام مركز دعوة وهداية بحيث إذا دخلها الإنسان عرف أنه يمشي في مركز الإسلام ، ويتنفس في وجوه ، فيرى الحدود قائمة ، وأحكام الشرع نافذة ، ولا يجد أحداً يتهاون في أمر من أمور الدين ، ويستخف به ، أو يجاهر بإثم ومعصية ، ولا يرى بدعة ولا فجوراً ، ولا دعاة ولا خدعة ، ولا يسمع برشوة ولا خيانة ، ولا ما ينافي روح الإسلام ، ويسمع الدعوة إلى الله ، وإلى الدار الآخرة ، وإلى الفضيلة والتقوى ، واتباع الكتاب والسنة ، والاجتناب من الشرك والبدعة ، والتمسك

(١) تاريخ الطبري (ج ٤ ص ٢٣٧) .

بفضائل الدين في كل مكان ، ويرى العمل بذلك في الطرقات والمجامع ، وبيوت الناس ودواوين الحكومة ، فيتشبع بروح الدين ، ويتضلع إيماناً وحماسة ، وفقهاً في الدين ومعرفة بأحكامه وشرائعه ، وحباً لأهله ، فلا يخرج إلا وقد استفاد الإيمان ، والعلم ، والتصلب في الدين ، والثقة برجاله وممثليه .

وإذا دخلها أجنبي ، أو حديث عهد بالإسلام ؛ عرف مزايا الحياة الإسلامية ، وفضل حكومة الإسلام ، وأثر الإقامة فيها ، وكره أن يفارقها ، ويعود إلى دار الكفر ، كما يكره أن يقذف في النار .

أما الحرمان فقد كانا في حكومة الإسلام - المؤسسة على مبدأ الهداية - مدرسة الدين ، ومهد الحضارة الإسلامية ، تتمثل فيهما الحياة الإسلامية بكمالها وجمالها ، ويأتي إليهما المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، ومن كل فج عميق ، فيشهدون منافع لهم ، ويتفقهون في الدين ، وينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم ، ويحتجون في بلادهم بما رأوه في الحرمين ، فيكون ذلك حجةً لمحافظة الحجاز على الدين والسنة ، وحرص حكومتها على تمثيل الحياة الإسلامية في مركز الإسلام ومنبعه .

ثم أتى على المسلمين حينٌ من الدهر نسوا أن الحكومة في الإسلام لم تكن إلا جائزة الدعوة والجهاد في سبيلها ، ولولا رسالة محمد ﷺ ودعوته إلى الله ، وما لقي في مكة والطائف من قريش والقبائل ، ولولا الهجرة والاختفاء في غار ثور ، والرباعية المكسورة يوم أحد ، ولولا ما صنع بحمزة يومئذ ، ولولا قتلى بئر معونة ومصلوب الأنصار^(١) ؛ لما دانت الدنيا للعرب ، ولا كانت دمشق ، ولا بغداد ، ولا كان لبني مروان أن يجبوا خراج الروم ، وفارس ، ولا كان للرشيد أن يقول لسحابة مرّت به : « أمطري حيث شئت ، فسيأتيني خراجك » .

(١) هو خبيب بن عدي بن مالك الذي قتله بنو الحارث بن عامر ، وبضعوا لحمه ، وحملوه على جذعة ، وهو القائل :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

أسس ملوك المسلمين بعد الخلافة الراشدة دولهم على مبدأ الجباية السياسية ، وأهملوا الدعوة إلى الله وإلى دار السلام ، وعطلوا الحدود ، وأبطلوا الحسبة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، ولم تعد مراكز الإسلام مدرسة الدين ، ومرآة لمدينته واجتماعه ؛ بل أصبحت تغرس الشك ، والنفاق في قلوب الوافدين ، وترزعزع عقيدتهم ، وثقتهم بالدين وأهله ، وأصبح القاصدون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي يكتسبون منها استخفافاً بشعائر الإسلام ، ورقّة في الدين ، ووهناً في العمل ، وسوء ظن بممثلي الإسلام ، ورجعوا يحتجون بالأوضاع الفاسدة في مراكز الإسلام ، وبالفوضى الدينية ، فكانت داهية عظيمة على رجال الإسلام والدعوة في الأقطار الإسلامية ، وفتنة كبيرة .

ليس العالم الإسلامي اليوم بأشد افتقاراً إلى شيء منه إلى حكومة تمثله تمثيلاً صحيحاً ، وتقوم على أساس الدعوة والهداية ، والنصيحة والخدمة ، فإنّ الإسلام لا يؤثر في عقول الناس ، ولا يشفي المتفحصين حتى تكون له رقعة في الأرض ، تتمثل فيها حياته ، وتتجلى فيها مدينته واجتماعه ، وتظهر فيها نتائج دعوته وتعاليمه ، فإذا كان ذلك ولو في رقعة صغيرة كان على الإسلام إقبال عظيم لم يعهد من قرون .

وليس العالم الإنساني بأقل افتقاراً من العالم الإسلامي لمثل هذه الحكومة التي شعارها الهداية والإصلاح ، لا الجباية والكفاح ، فإنّ الإنسانية العلية جريحة لا يسعفها اليوم إلا قيام هذه الحكومات التي تؤسس على أساس الفضيلة والدين ، واحترام الإنسانية ، وإيثار الأرواح على الأرباح ، والأخلاق على الأعلاق ، وكسب الرجال على كسب الأموال ، فإذا تأسست هذه الحكومة - مهما كانت صغيرة ، ومهما كانت مواردها ضعيفة - كان ذلك حادثاً قريباً يستحق كل تنويه وإشادة ، وقام كبار السياسيين ، وأصحاب اليراع ، وقادة الفكر يشيرون إليها بالبنان ، ويضربون بها الأمثال ، ويؤلفون عنها مؤلفات ، وأصبح الناس يأوون إليها كما يأوي الغرقى إلى جزيرة في البحر ، لينعموا في ظل حكومتها ، وينفضوا عنهم غبار الظلم والفتن ، ويتنفسوا من

متاعب المدنية المعقدة المزورة ، والحكومات الجباية الجائرة ، ولكانت هذه الحكومة غرةً في جبين الدهر ، وشامةً بين الحكومات والدول .

إنَّ الإنسانية قد جربت حكومات الجباية على اختلاف أنواعها وأسمائها - من شخصية ، وديمقراطية ، ورأسمالية ، واشتراكية ، وشيوعية - فوجدتها بنات علات ، لا تختلف في أصلها ، ومبدئها ، وروحها ، ونزعتها ، وقلبتها على كل جانب ، فلم تر منها إلا شراً ومراً ، ولم تر اختلاف الأسماء يغني عن شيء ، وإذا تأسست جديدة باسم جديد ، نادى لسان الحقيقة في لفظ أبي العلاء المعري :

ألا إنما الإيام أبناء واحد وهذي الليالي كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذي مرت به السنوات

وإذا ضمت إلى هذه الحكومات المعدودة بالميئات حكومة جديدة لا تختلف عن أخواتها إلا أنها يرأسها مسلم ، أو يديرها عدد من المسلمين ، لم تكن بدعاً ، ولم تكن شيئاً طريفاً ينوه به ، أو يشار إليه بالبنان ، أو تعقد به الآمال ، فإنَّ هنالك حكومات تفوق هذه الحكومة عشرات من المرات في طول مساحتها ، وضخامة ميزانيتها ، وكثرة إنتاجها وإصدارها ، وفي جيشها ، وأساطيلها ، وبوارجها الحربية ، وعدد الطائرات ، وكثرة المصانع ، ورفي الصناعة والتجارة ، واحتفال المدنية والحضارة ، وحسن الإدارة وانتشار العلم في طبقات الشعب ، وقلة الأمية ، إلى غير ذلك مما تمتاز به الحكومات الأوربية .

إنَّ قيام دولة للمسلمين في بقعة من بقاع الأرض فرصةٌ سعيدةٌ نادرةٌ لا تسنح في كلِّ حين ، ومثل هذه الفرص - كما يعرف المطلع على السنن الإلهية وعلى تاريخ الأديان والدعوات الإصلاحية - قد تسنح بعد قرون ، وتكون من فترات الدهر ، وفي قصرها كوميض البرق في ليلة مظلمة ، وتكون امتحاناً عظيماً لرجالها ، كيف يستخدمون هذه الفرصة لدعوتهم ومبادئهم الدينية على حساب مصالحهم الذاتية ، وراحتهم ولذائهم ، فإذا انتهزوا هذه الفرصة ، وعرفوا قيمة الوقت ، وأحسنوا تمثيل هذه العقيدة والدين الذي ينتسبون إليه وحسن ظن الناس بهم ، وصدقوهم فيما يقولون ؛ فقد خدموا

دينهم ، وأنفسهم خدمة باهرة ، وإن كان غير ذلك ، فأساءوا استعمالها ، واستغلوا لمصالحهم الشخصية على حساب الدعوة الدينية ، ورجالها المخلصين ، وجهودهم في سبيل نشر هذه الدعوة ، وقيام هذه الحكومة ، كما فعلت الدولة الأموية ، والعباسية ، ودول كثيرة ؛ فقد ضيعوا الفرصة ، وخسروا دورهم ، وخسرت معهم الدعوة التي وصلت أسبابها بأسبابهم دورها ، وما يعلم أحد متى يعود هذا الدور ، وهل يعود أو لا ؟ فقد شهد التاريخ أمماً وجماعات كثيرة ضيعت فرصة حكمها وسلطانها ، ولم تنتفع بها ، وانتهى دورها القصير ، أو الطويل ، فوقفت مع المتفرجين المنعزلين وبقيت تنتظر دورها في حلبة الأمم ، وتعوض على تفريطها ببنان الحسرة والندم .

هذا وإلى الحكومات الإسلامية ومن كان على رأسها أن ينتهزوا الفرصة ، ويحرزوا قصب السبق ، ويبلغوا بهمتهم وعنايتهم إلى حيث لا يبلغ إليه كبار الصالحين والأتقياء بعبادتهم ، وزهدهم ، وذلك بما آثرهم الله من حول وطول ، ونفوذ وسلطان ، وفرص لا تتأتى لغيرهم ، ولهم أن يصلوا في خدمة هذا الدين ، وإعادة شبابه ، وإصلاح المجتمع ، وتغيير اتجاهه ، من الجاهلية إلى الإسلام في يوم واحد - إذا أرادوا بذلك ، وصحت عزيمتهم ، وصدقت نيتهم - ما لا يصل إليه المصلحون ، والمؤلفون والعاملون في أعوام وقرون ، وينالوا من رضا الله وثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، ما يغبطهم عليه كثير من العباد ، والمتقين ، وعباد الله الصالحين .

وما أطلق الناس على عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكبير والخليفة الراشد إلا بتغييره مجرى الحكومة من الجباية إلى الهداية ، والإصلاحات التي قام بها ، وبرجولته وعصاميته في سبيل مبدئه ، ولو وزن ما تنازل عنه من نعيم زائل ومتاع فان ، وأنواع من لباس وطعام ، ودواب وأنعام - كان لا بد أن يتركها يوماً من الأيام - لو وزن ذلك كله بما اكتسب من نعيم لا ينفذ ، وقرة عين لا تنقطع ، وما يرجو من مرافقة محمد ﷺ وأصحابه ، والالتحاق بحزبه ، وما جعل الله له من لسان صدق في الآخرين ، لرجح ما اكتسب رجحاناً واضحاً ، وعدّ من كبار الأذكيا ، وعقلاء العالم .

إلى صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز
(ولي المملكة السعودية ورئيس الوزراء سابقاً)

شخصية البلاد المقدسة الفريدة ووجوب
الاحتفاظ بها في جميع المخططات المدنية
والتربوية والمشاريع التقدمية ووسائل
الترفيه والتسلية

تتابعت رحلات العلامة الندوي وزياراته للبلاد
المقدسة ، وجذّت شؤون ، وسارت البلاد
والمملكة في طريق التطور المرتجل بضغط العوالم
السياسية والاقتصادية والحضارية التي كانت تشغل
حولها ، فرأى العلامة ضرورة الاتصال بولاة الأمور
وساسة البلاد ، وفي مقدمتهم صاحب السمو
الملك الأمير فيصل بن عبد العزيز الذي كان ولي
عهد ورئيس الوزراء ونائب جلالة الملك في
الحجاز ، فكتب إليه هذه الرسالة :

حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز ولي العهد
المعظم ورئيس الوزراء حفظه الله ورعاه .
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد ! فأدام الله عليكم النعم التي أكرمكم بها ، ووفقكم لما فيه رضا
الله ، وثناء المسلمين وشكرهم وطيب الذكر وخلود الأثر ولسان صدق في
الآخرين ، وما هو وفاء قيمة لمواهبكم العظيمة والفرص السانحة الكريمة
التي من الله بها عليكم .

إنه من المقرر المعلوم لديكم أن هذه البلاد ليست ككل البلاد التي ينظر
في قضاياها ، ومدنيتها ، وتقدمها ، وترفيه أهلها ، وتنظيم معارفها ، وتوجيه
الرأي العام فيها كأى بلد في الشرق والغرب ، إنها بلاد أراد الله وقضى أن
تكون عاصمة الإسلام ومعدل الدين ، ومثابة لقلوب المسلمين ، وأنها مقدمة
ووديعة من رسول الله ﷺ ، خرجت ببعثته من الظلمات إلى النور ، ومن
الخمول والعزلة والانطواء والاختفاء في حاشية الأمم تحت ركام التاريخ ، إلى
الشهرة والقيادة ، والمركزية في العالم ، وانتشرت لغتها وثقافتها في أوسع
رقعة من الأرض ، وفي أطول مساحة من الزمن ، وفي أوسع دائرة وأكثرها
تنوعاً من الشعوب والأمم .

فمما يقتضيه الدين والشعور بالأمانة والمروءة والشرف والاعتراف بالواقع
التاريخي والعملية ومراعاة عواطف المسلمين المنتشرين في مشارق الأرض
ومغاربها ، ومما تقتضيه السياسة الحكيمة أن يكون كل ما يقرّر ويسنّ ،
ويدعى إليه ويسمح به في كل مصلحة من مصالح الحكومة ، وفي كل ناحية
من نواحي الحياة العامة ، خاضعاً لشخصية هذه البلاد الخاصة ورسالتها
ومركزها في العالم والدعوة التي قامت بها في الماضي ، وعرفت بها في
الحاضر ، ولتجنب كل التجنب عن كل ما ينافي عقيدتها ومبادئها ويرزوها في
شخصيتها ومعنوياتها ، مهما جر ذلك على هذه البلاد من النفع المادي ،

وعلى أهلها من الترفيه والتسلية والخصب ، وإن هذه البلاد وقادتها أولى بهذه التضحية في سبيل المبدأ من الشيوعيين في روسيا والرأسماليين في أمريكا الذين لا يسمحون أبداً بما ينافي مبادئهم وسياسة بلادهم مهما صغر وتفه ، ومهما تضخم نفعه المادي وربحه المالي .

وقد يعتقد بعض الناس أن في هذا التوسع والانطلاق في مواد التسلية وتقليد الأقطار المتمدنة التي سارت وراء الغرب في أساليب التعليم وبرامج الإذاعة وتطبيق مظاهر الحياة الغربية مما لا تقدّم ولا تؤخّر في نهضة البلاد وقوتها ، ترفيهاً للشعب ، وتحقيقاً لمطالبه ، وعلاجاً للتذمر ، وشاغلاً له عن التفكير الخاطيء وتقدماً بالبلاد - ومع الأسف والاعتذار - لا أوافق على ذلك في ضوء التجربة والتاريخ ، فليس هذا هو العلاج ، - وماء البحر المالح الأجاج لا يزيد الشارب إلا عطشاً - إنما العلاج هو تحقيق العدالة الاجتماعية الإسلامية ، والتقدم بصناعة البلاد وتجاربها وإيجاد الوسائل الكفيلة للرزق الحلال ، والسير في طريق الاكتفاء الذاتي وكفالة البلاد لنفسها وإنشاء المصانع وترخيص الحياة وحاجياتها ، والتقليل أو التحديد من أسباب البذخ والكماليات والترفيه الكريم المشروع الذي ليس ضيقاً ولا محدوداً كما يعتقد من لا يعرف الشرع وطبائع البشر .

أما التقليد والتفكير المترهل الذي ينجرّف مع التيار والذي لا مقاومة فيه ، والذي يخضع لكل دعاية ويسرع إلى تحقيق كل مطلوب فهو خطر على البلاد وخطر على الحكومة ، وهو ينشر في أقرب وقت التفسخ الخلقي والميوعة ، وضعف الشخصية الذي تعانیه البلاد الأخرى وقد أفلت الزمام من أيدي قادتها ومصلحيها فأصبحوا لا يملكون من أمرها شيئاً .

ثم إن هذا الاتجاه يفقد هذه البلاد حرمتها وقداستها وشخصيتها ، ويقطع صلتها عن الماضي ، ويحول بين هذه البلاد وقادتها ، وبين نصر الله ورحمته التي لا انتصار ولا عز ولا كرامة ، ولا سلامة ولا عافية بغيرها ، فالعدو قويٌّ ماكر لا يحترز من شيء في سبيل مراميه البعيدة ، وعزائمه الخبيثة ، وفيه الحرمان من أسباب نصر الله ورحمته التي لا غنى بنا عنها .

إن هذه البلاد لو سارت في هذا الاتجاه الذي يدعو إليه بعض الناس ، الاتجاه الذي سارت فيه مصر ، وسورية ، ولبنان ، من الحرية المطلقة والترفيه غير المحدود وغير المقيّد بالشرع والأخلاق ، وسارت في اتجاه القومية كما يدعو إليه كثير في الخارج ، واعتبرت نفسها قطراً من الأقطار ، ودولة من الدول ومجتمعاً من المجتمعات البشرية الكثيرة ، ليست لها شخصية خاصة ، ولا رسالة ، ولا دعوة ، ولا حدود مستمدّة من الشرع الإسلامي تقف عندها ، فإنها تصبح بلداً من البلاد الكثيرة التي لا قيمة لها في خريطة العالم ، ولا في هيئة الأمم ، وضاعت - لا سمح الله - الجهود التي بذلها أجيال المسلمين الأولى ، ولا قيمة لبلاد يترّف أهلها ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، ويموتون كما تموت الحشرات ، ولا رسالة ولا دعوة ، ولا عقيدة ولا مبدأ ولا شخصية ، ولا خلق ، وفقدت احترام العالم الإسلامي وقيادته ورهبة أوربة وقادتها ، وإجلالهم ، والمكانة التي كانت تشغلها في التاريخ ، وتستطيع - بقليل من الجهد والعزم - أن تشغله في الحاضر ، إنه سقوط في المهمة وضعف في التفكير ، وجبن في الإرادة أربأ بنفس كل عاقل عنه .

إنني كفرد يدين لهذه البلاد في دينه وعقله وثقافته أستحث هممكم ومواهبكم وما أكرمكم الله به من جاه ومنصب ونفوذ ، لمحاربة هذا الاتجاه الخطر ، إذا وجد في زاوية من الزوايا الخاصة والعامة ، وتجنيد جميع قواكم في سبيل حفظ شخصية هذه البلاد الإسلامية العربية ، وتوجيه التفكير والرأي العام ، والصحافة والإذاعة ، والأدب والمعارف ، إلى ما يغرس في نفوس الشعب وشبابه وجيله الناشئ الإيمان والحماس الديني والغيرة الإسلامية وحب الأخلاق والفضيلة ، وكراهة الإثم والفسوق والفحشاء ، ويرسي فيهم القيم الإسلامية ويجعلهم جديرين لحمل المسؤولية الكريمة العظيمة التي يرشحهم لها الإسلام وترشحهم لها هذه البلاد ، ومجال الدعوة والجهد الذي أكرمكم الله به في هذه البلاد المقدسة لا يتيسّر لكل أحد في كل بلد ، ولا يتيسّر في كل زمان ، فأرجو جاهداً مخلصاً أن تنتهزوا هذه الفرصة ، وتؤدّوا رسالتكم بالتنفيذ ، فإن البلاد العظيمة المقدسة لما يقع حولها من أحداث

وتقلبات ، وبما يجيش فيها من بلبلة الأفكار واضطراب العقول ، تمر بمرحلة عصبية دقيقة من أدق المراحل في تاريخها ، وإن اللحظة فيها اليوم تعد بشهور وأعوام ، وإن خطوة قصيرة تخطىء موضعها تنتقل بها إلى مسافة بعيدة لا يسهل الرجوع عنها ، وإن الحكومة - والله الحمد - تستمع وتصغي إلى كل كلمة مخلصة وتوجيه فيه سلامة البلاد وقوة الحكومة ومنفعة الإسلام وسعادة المسلمين .

وأعتذر عن هذه الكلمة الصريحة التي لم يحملني عليها إلا الإخلاص والولاء لهذه البلاد وحكومتها ، وطلب السلامة والعز ، والشرف للعرب وللمسلمين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المخلص

أبو الحسن علي الحسني الندوي
أمين ندوة العلماء العام - لكهنؤ بالهند

إلى صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم الصباح
(أمير دولة الكويت)

مسؤولية أمراء العرب في أطراف الجزيرة
والخليج العربي في المحافظة على سلامة
البلاد ووحدتها الدينية

زار العلامة الندوي الكويت في شعبان ١٣٨١هـ
(يناير ١٩٦٢م) ، وأقام فيها عدة أسابيع محفوفاً
برجال العلم والأدب والثقافة والدين ، قابل أمير
البلاد صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم
الصباح ، ودرس أوضاع البلاد واطلع على مشاريع
تقدمها ونهضتها ، ونظر إلى البلاد نظرة مسلم واع
محب للبلاد وأهلها ، دارس للتاريخ ولما مرّت به
البلاد العربية كلها من مراحل تجريبية وسياسية
وحضارية ، وكتب في ضوئها هذا الخطاب الذي
قدم إلى سمو الشيخ وقرأه واطلع على ما فيه :

حضرة صاحب السمو الشيخ عبد الله السالم الصباح
أمير دولة الكويت المعظم !
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الحمد لله العلي العظيم ، والصلاة على نبيه المختار الذي أكرم الله به العرب وأنقذ الإنسانية وأسعد العالم ، وبعد ، فأرى من الحق الواجب عليّ كزائر مسلم ، أن أبدي سروري وإعجابي بما رأيته من عنايتكم بتقدّم البلد ورخاء الشعب ، وبما وصل إليه الكويت في مدة قريبة من العمارة والحضارة والازدهار ، وقطع شوطاً واسعاً في عهدكم الميمون وتحت إشرافكم الكريم ورعايتكم الأبوية ، متع الله بحياتكم وعطفكم البلاد والعباد .

وضناً بوقتكم الثمين أتقدّم ببعض ملاحظات ومعرضات إلى سموكم في أدب واحترام يليق بمقامكم السامي ، وفي إيجاز نظراً لأشغالكم وما أخذتموه على عاتقكم من مسؤولية وخدمة .

الأمر الأول : أن الله سبحانه وتعالى قد منح سموكم فرصة نادرة في التاريخ ، تستطيعون أن تمثلوا دوراً خالداً يذكر ويشكر ، وهو ملء أروع فراغ في مدينتنا الحاضرة ، وذلك الفراغ هو فقدان دولة تجمع بين الدين والمبادئ ، وبين الوسائل والمادة ، وفقدان مجتمع يجمع بين الإيمان والأخلاق ، وبين اتصال بالعالم المعاصر والاستفادة بالتجارب الجديدة ، وذلك فراغ لا يملؤه الآن أكبر دولة في العالم ، وكل من يمثل هذا الجمع النادر بين الدين والمدنية هو رجل الساعة المنتظر ، وكل دولة تظهر بهذا الشعار هي دولة تحتل المكان الأول معنوياً في قائمة الدول والحكومات ، وتتمتع باحترام لا تتمتع به أعظم دولة في العالم ، هذا عدا النصر والتأييد الإلهي والبركات الكثيرة والحب العام الذي وعد الله به عباده المؤمنين الصالحين الذين يستخلفون لهذا الدين ، ويحتضنون رسالته ، ويجاهدون في سبيلها .

والوسائل لتحقيق هذا الغرض متوفرة ، والفرصة سانحة ، والأمر ميسور ، إذا صحت العزيمة وقويت الإرادة : ﴿ إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] .

والأمر الثاني : أن الله سبحانه وتعالى قد قضى منذ بعث رسوله ﷺ أن لا نهضة للعرب ولا سيادة ولا وحدة ولا حلّ لمشكلاتهم ، إلا عن طريق هذا الدين وعن طريق محمد ﷺ ، والتاريخ يشهد لذلك ، والحوادث الجديدة قد برهنت عليه ، فكل من يحاول أن يضعف صلة الأمة العربية بمحمد بن عبد الله ﷺ ، أو يحدث عنها كأمة مستقلة كانت قبل محمد ﷺ وكانت بعده ، وستظل قائمة بمواهبها وإمكاناتها ، وتبني كيائها على أساس آخر ، أقدم من البعثة المحمدية أو جديد ، فهو يجني على الأمة العربية جناية لا تعدلها جناية وجريمة ، ويقتلع من نفسها جرثومة الإيمان ويزلزل عقيدتها ، ويهدم ما بناه المصلحون والمخلصون ، وما بنته الأمة العربية في قرون ، ولا يستحق تشجيعاً من دولة عربية مسلمة ، فهو أعدى عدو لها ، وهو الذي يقطع صلتها عن ماضيها وعن دنيا الإسلام الواسعة ، وينضب معينها من غير تعويض يكافئ هذه الخسارة العظيمة ، ومثل سموكم في غنى عن الشرح والتفصيل .

والشيء الثالث : هو توجيه المعارف في البلد الإسلامي العربي توجيهاً إسلامياً مؤسساً على تفكير أعمق ، وتصميم وتخطيط خاص يتفق مع رسالته ، وعقيدته ، إذ « المعارف » هي مربية للأجيال القادمة ، وعليها يتوقف مستقبل هذا الشعب الديني والخلقي واتجاهه وتوجيهه للمدنية ، ومنع الميوعة والتفسخ الخلقي في الشباب والنشء ؛ لأنه ما دخل في أمة إلا ضيعها وأذلها وأضعفها ، وهو يعارض الاستقامة التي يطلبها الدين ، والفروسية التي تقتضيها العروبة ، الأمر الذي تحرصون عليه سموكم ولا شك .

والشيء الرابع : الذي تشكرون عليه هو مساعدة الشعوب المسلمة وتكميل مشروعاتها التي لا بقاء لها بغيرها ، بما يفضل عن تقوية لشعبكم وزرع للحب في النفوس ، وشكر على نعمة الله العظيمة .

والشيء الخامس : هو الحذر من قيام المعابد لغير المسلمين في أرض هذه الجزيرة التي ولأكم الله أمرها واستخلفكم فيها ، فإن وجود هذه المعابد في هذه الجزيرة التي أوصى رسول الله ﷺ بتجريدتها للإسلام والمسلمين وعقيدة التوحيد الخالصة وعبادة الله وحده ، التي جاء بها الإسلام ، وإخلاؤها من اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب فضلاً عن عباد الأوثان ، وقد صح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، حتى لا أدع فيها إلا مسلماً » ، وقال في آخر كلامه في الدنيا : « لا يبقين دينان على أرض العرب » وقالت عائشة : - رضي الله عنها - : « كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال : لا يترك بجزيرة العرب دينان » ، ووجود هذه المعابد خطر على سلامة هذه البلاد ، فإن أهلها يطالبون بحمايتها ويستغلون وجودها ، فتنشأ مشاكل يعجز العقلاء عن حلها .

كذلك الحذر من تضخم عدد الأقليات غير الإسلامية والجاليات الأجنبية واستفحال أمرها ، وقوة مركزها ، وتملك هذه الأراضي ، فإنها ستنشئ دولة في ضمن دولة ، وقضايا معقدة تدع الحليم حيران .

وفي ذكاء سمو الأمير وبعد نظره وتجارب البلاد والأمم ما يغني عن تفصيل هذا الإجمال وعن الإطناب في هذا الموضوع .

وأرجو المسامحة في هذه الجراءة التي لم يكن دافعها إلا الإخلاص والدين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الكويت ٢٢ شعبان ١٣٨١هـ
الداعي لحياتكم ونصركم
أبو الحسن علي الحسيني الندوي

إلى جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز
(ملك المملكة العربية السعودية)

تجربة التاريخ والأمم في إخفاق سياسة
إطلاق العنان في الحرية والتمتع ،
والتسلي والترُّهُ ، وأن الطبقة المؤمنة
المستقيمة وحدها جديرة بالثقة والاعتماد

كان العلامة الندوي من الأفراد السُّعداء المعدودين
الَّذين حازوا ثقة جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز وأنس
بهم ، وفسح لهم مجال الحديث في وحدة وانفراد ،
ومنحهم فرصة اللقاء والحديث مرة بعد مرة ، فانتفع
العلامة بهذه الثقة الغالية ، وانتَهز هذه الفرص الثمينة
للإفضاء إلى جلالة الملك بذات صدره ومكنونات
ضميره ، وقد التقى به مرات ، وكان من ضمن هذه
اللقاءات ، لقاء معه في مكتب رئيس الوزراء في جدة في
شهر ربيع الأول سنة ١٣٨٩هـ (يونيو ١٩٦٩م) ، قدم
العلامة في هذا اللقاء رسالة إلى جلالة الملك ، وأبدى
جلالة الملك عزائمه وخوافره ، وتقديره للملاحظات
التي قدمها العلامة في رسالته إلى جلالة الملك التي كانت
مصدرها الإخلاص والحب والغيرة على هذه البلاد .

وفيما يلي نص هذا الكتاب التاريخي :

حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل المعظم حرسه الله ورعاه :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

وبعد! فقد ظل الملك المعظم يكرمني ، كلما طلبتُ ، بلقاء حرّ كريم ، وحديث صريح ، وأكرمني كل مرة بحسن الاستماع والمذاكرة في الموضوع ، وقد رأيت في هذه المرة أن أكتب ما أريد أن أقول ، خوفاً من التقصير والعجز في الكلام ، ولتبقى هذه المذكرة عند جلالته ، وتكون موضع اهتمامه .

قد بدت الفتن تتقدّم إلى الجزيرة العربية ، وإلى آخر حصن من حصون الإسلام ، والاستقرار والسلام ، فاعرة أفواها مكشرة أنيابها ، وهي لا تعرف الرحمة ولا الهوادة ، ولا الاستثناء ولا التسامح ، قد بدأ كل بلد عربي ، بل إسلامي إلا النادر القليل ، يجرب الشيوعية أو الاشتراكية ، وأصبح تحت رحمة الحكام العسكريين ، والقادة الثوريين ، والزعماء الأنانيين ، وأصبحت الشعوب في براثن هؤلاء الثوار كعصفور بين أنياب الصقور القاسية الضارية ، لا تملك من أمرها شيئاً . وقد بدأت الشيوعية تزحف إلى هذه المملكة من أربع جهات ، من الجهة الشمالية ، ومن الجهة الجنوبية ، ومن جهة الغرب ، ومن جهة الشرق ، هذا ما عدا أنصارهم وروادهم ، الذين يعملون في الخفاء ويهيئون العقول والنفوس لقبول هذه الفلسفات الهدّامة ، في مجال التربية والثقافة ، والكتابة والتأليف والإعلام والإذاعة .

وقد أخفقت كل تجربة لتلهية الشعب بالترفيه والتسلية وفيض من آلات الرخاء وإطلاق العنان في إرضاء الغرائز ، وتحقيق المطالب ، وإمدادها بأكبر قسط من التمتع ، ورفع مستوى الحياة ، من عهد بني أمية فالعهد العباسي إلى هذا العهد في كل بلد من بلاد المملكة الإسلامية الواسعة ، وفي كل دور من أدوار التاريخ الإسلامي الطويل ، فلم تحمل هذه السياسة - المعتمدة على توجيه طبيعة القلق والطموح المودعة في الإنسان ، من التفكير في القضايا العامة ، والأوضاع السياسية ، إلى التفكير في التهام الذات ، وانتهاب

المسرات ، وانتهاز فرصة الحياة - الشعوب على الشكر والامتنان ، والتقدير والاحترام ، بل كانت هذه الشعوب التي أغدقت عليها النعم ، وعاشت بين روح وريحان ، وإطراب وألحان ، من أسبق الأمم إلى جحود النعمة ، ونكران الجميل ، وأكثرها كنوداً وقسوة على الأسر الحاكمة ، الرحيمة السخية ، والحكومات المتسامحة ، فانتهزت أول فرصة للثورة عليها ، وقلب الأوضاع ، وعاملت المحسنين شر معاملة عرفها التاريخ ، وهذه طبيعة المادية الانتهازية الأبيقورية التي لا تعرف المفاهيم الدينية ، والقيم الخلقية ، ولا تعرف المعاد والحساب ، وهي حكاية مطردة وتمثيلية متكررة في جميع أدوار التاريخ ، كذلك كان في آخر دور الأمويين وفي نهاية الخلافة العباسية ، وعندما بلغت المدينة ذروتها في حكومات الشرق والغرب ، وكذلك كان في مصر وسورية ، وفي العراق بالأمس القريب ، وفي السودان قبل أيام ، فلم تنفع هذه الفرص السخية المتاحة للشعب ، وهذه الفيضانات من أسباب الترفه والتسلي والتمتع والتلهي ، فرحبت هذه الأمم بكل ناعق ، وانتهزت أول فرصة للانقلاب .

وقد تحقق أن الإيمان العميق والاستقامة الخلقية والاقتصاد في الحياة ، والتقشف والقناعة في المعيشة ، وباختصار وصراحة : إن تقوى الله وخشية الحساب ، والحياء والوفاء والأمانة ، بالمعنى الواسع ، هي الخلال التي تمنع عن الجحود والكنود ، والقلق الدائم والغدر والخيانة وعبادة القوة أينما وجدت ، والترحيب بكل جديد وارد ، وزاحف مارد .

وأعتقد - والإشفاق والتألم يملأن جوانحي - أن فرصة العلاج الحقيقي الحاسم ، وفرصة صيانة هذه المملكة ، بما فيها من مقدسات وحصون للإسلام ، من هذه الموجة الطاغية التي بدأت تمتد إليها حانقة ثائرة ، ومن وقوع هذه الجزيرة فريسة سائغة لهؤلاء الثوريين الأنانيين ، الذين يهلكون الحرث والنسل ، ويجردون البلاد من كل نعمة من نعم الدنيا والآخرة ، فرصة محدودة قصيرة جداً ، وأرجو عدم المؤاخذه إذا قلت : إنها آخر فرصة ، وعاهل هذه المملكة الذكي الألمعي هو خير من يعرف قصر هذه الفرصة ، وشدة هذا الخطر ، والأوضاع غير عادية فلا تقوم بطرق سياسية عادية مما جربتها جميع

الحكومات التي وقعت فريسة هذه الثورات ، وهي أساليب تقليدية لم يعد الله لها بالنصر ، ولم تمنع من حدوث أي انقلاب في أي بلد ، وإنما تنفع في هذا الوقت الرهيب خطوات جريئة حاسمة ، وتغييرات جذرية ، وعهود ومواثيق صادقة مع الله ، فليسمح لي جلالة الملك أن أقول : إن مثلنا كمثّل قوم يونس الذين أروا الله الصدق والإخلاص ، والإنابة والإخبات في آخر ساعة ، وغيروا ما بهم فغير الله ما بهم .

وهنا بغاية من الاختصار بعض النقط الرئيسية ، التي لا بدّ من الضغط عليها :

١ - الصدق والإخلاص ، والعزم على إخضاع كل ما يجري في هذه البلاد - من أمور إدارية حكومية مما يتصل بالإعلام والتربية ، وكل ما يؤثر في الرأي العام ، وفي عقلية الشعب وأخلاقه ، ومستقبل البلاد - للمقاصد التي بنيت لها الكعبة ، واختيرت لها هذه الأرض ، لتكون مركزاً للإسلام ، ومصدر إشعاع عالمي ، وللحكمة التي نَبّه عليها القرآن بقوله : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] .

٢ - إزالة التناقض بين ما يعلنه جلالة الملك ، ويتزعمه بحقه ويدعو إليه ، من الدين الخالص ، والإسلام الصريح ، وتحكيم الكتاب والسنة ، والتمسك بالتعاليم الإسلامية ، والقيم الخلقية ، والتضامن الإسلامي الذي أصبح جلالة الملك داعيه الأكبر في هذا العصر ، وبين كل ما ينافيه في مجال الإعلام والتربية ، والمظاهر الاجتماعية واتجاهات الشعب من اندفاع متهور إلى الترفيه والتسلية ، والأغاني والملاهي ، والقصص المثيرة والبرامج المستوردة الرقيقة التي أفلت معها الزمام من يد المربين والآباء والأساتذة والعلماء ، والتي لا يحتفظ معها أي شعب بالبقية الباقية من الشعور الديني والحصانة الخلقية ، ولا يستعد للطوارئ والمفاجآت ، ولا يتحمل أقل صدمة أو خطر من الخارج .

٣ - اتخاذ الحياة الإسلامية ، الحياة التي يرضاها الله ويباركها وينصر عليها ، والحرص على إزالة جميع المنكرات ، وأسباب السخط ودواعي

الخدلان ، والفشل في المجال الإداري ، والأخلاق الاجتماعية والفردية ، وتتبعها تتبعاً دقيقاً ، والحد من الثراء الفاحش ، وتكدسه في عدد محدود وطبقة معينة ، وتقييد التجارة ، وحركة الاستيراد الحرة على حساب أخلاق الشعب ، وفي مصلحة عدد محدود جداً وطبقة معينة ، خصوصاً إذا كان ذلك من طبقة الأمراء والأثرياء ، ورجال الحكومة ، فإن كل ذلك مما يمهّد الأرض ، ويفتح الطريق للشيعوية المتطرفة ، والاشتراكية المقنعة ، والحيلولة بين الحكومة والتجارة بقدر الإمكان ، وإلى أقصى الحدود ، فإن ذلك مما يجحف بالشعب ، ويجني على الأخلاق ، ويجعل الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شبه مستحيل ، وقد نبه نابغة العرب وفيلسوف المؤرخين العلامة ابن خلدون على ضرره وسوء أثره في الحياة .

٤ - عدم الثقة بقيادة العرب الأنانيين الذين لا يعرفون غير مصلحتهم ، والذين وصفهم القرآن بقوله : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة : ١٠] ووصفهم بقوله : ﴿ يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأَنَّى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٨] والذين ينتهزون أول فرصة في بلاد أصدقائهم لقلب الحكومات وإحداث الثورات ، والذين لا شيء أبغض إليهم من وجود الاستقرار والرخاء في بلد ، وقد يكون اليهود أحب إليهم من هؤلاء المسلمين ، والعرب ، والذين ينتهزون أول فرصة لشفاء النفوس من هؤلاء الأبرياء الذين أسعفهم بالأموال في الساعة العvisية ، وأنقذوا الوضع ، وينتھزون أول فرصة لتوجيه إذاعاتهم وصحفهم إلى نهش لحومكم ، والولوغ في دمائكم : ﴿ كَانَ لَمْ تَكُنْ يَنْتَكُمُ وَيَبْنَهُ مَوَدَّةً ﴾ [النساء : ٧٣] .

بالعكس من ذلك ، الاعتماد على الصادقين المخلصين في داخل البلاد وخارجها ، الذين تربطهم بكم رابطة العقيدة والعاطفة ، والذين يدينون بالولاء والوفاء ، ويؤمنون بمبدأ الحب في الله ، والبغض في الله تقرباً إلى الله ، وإعزازاً لدين الله من غير مقابل مادي أو طمع دنيوي ، أو مصلحة فردية أو سياسية ، فأولئك هم الكنانة والجنت في الخطوب ، وموضع الثقة والأمانة ، وعيبة النصيح في السراء والضراء ، ولا يكون هذا الإخلاص إلا عن إيمان

عميق ، ودين متين ، ورابطة روحية ، ونزاهة لا ترتقي إليها شبهة ، ووجود أمثال هؤلاء في الحكومة ، والجهاز الإداري ، والاعتماد عليهم في السياسة الخارجية والداخلية ، أكبر حارس للحكومة والبلاد ، بخلاف الانتهازيين والعلمانيين ، الذين لا يدينون بدين ولا يزعمهم وازع من خلق أو مبدأ ، ولا يرون لهذه البلاد قدساً أو شرفاً ، إنما ينساقون مع الرغبات والمصالح ، وينفذون أوامر قادتهم في الخارج .

هذا ما أملاه الإخلاص والحب لهذه البلاد ، ولمن اختاره الله لحراستها وخدمتها ، والحرص على سلامة هذه البلاد من الأخطار التي قد وصلت إلى أسوارها ، وبدأت تدق أبوابها ، وفي اطلاع جلالة الملك الواسع وألمعيته النادرة ما يغني عن التطويل والتفصيل ، والشرح والتعليل ، والله المستعان . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(١) .

الداعي المخلص

أبو الحسن علي الحسيني الندوي

(١) ردّ جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز على رسالة العلامة الندوي :

الرقم ٣٠٤

التاريخ ١٣٨٥/٢/٩هـ

فضيلة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

نرجو من الله لكم دوام الصحة وموفور السعادة : وبعد :
فقد تلقينا رسالتكم المؤرخة في ١٥/١٢/١٣٨٤هـ . وأحطنا علماً بما أبدىتموه ، ومع شكرنا لمشاعركم الطيبة وتقديرنا لروحكم الإسلامية وغيرتكم الدينية ، فإننا نود أن نؤكد لكم أننا لم نسمح ولا يمكن أبداً أن نسمح بما يتعارض مع ديننا الحنيف وتعاليمه القويمة ، سائلين المولى سبحانه أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير هذا الدين وإعلاء شأنه وجمع كلمة المسلمين على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم .
والله يحفظكم .

فيصل بن عبد العزيز آل سعود

إلى صاحب السمو الملكي فهد بن عبد العزيز آل سعود
(ولي العهد والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء)

الخط الأخير في جبهة الوجود الإسلامي ووجوب حراسته ودرء الأخطار عنه

كان جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز قد
استأثرت به رحمة الله ، وخلفه أخوه جلالة الملك
خالد بن عبد العزيز ، وولي عهده الأمير فهد بن
عبد العزيز .المعظم النائب الأول لرئيس مجلس
الوزراء ، فأراد العلامة الندوي أن يبث شجونه
وأحزانه إلى من يملك زمام الأمور ، ويؤثر في
سياسة البلاد وسير الأمور فيها ومن ينظر إليه الناس
كقائد وقدوة ، فكتب هذه الرسالة في حالة نفسية
خاصة ، وتأثر عميق ، وقدمها إلى حضرة صاحب
السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز في ٢٢ /
من ربيع الأول سنة ١٣٩٦هـ (٢٢) / من إبريل
١٩٧٦م) وإليك نص هذه الرسالة :

حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن العزيز ولي العهد والنائب
الأول لرئيس مجلس الوزراء . حفظه الله ورعاه
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد ! فقد كنت حريصاً على لقاء سموكم والحديث معكم في جلسة
خاصة هادئة ، مع معرفتي للمسؤوليات الضخمة التي تضطلعون بها ، وإنما
جزئاًني على ذلك ما كان عودني عليه أخوكم العظيم جلالة الملك فيصل الشهيد
من سماحه لي للحديث الخاص كلما طلبته ، وحسن استماعه والصبر ، وما
كان أولاني به من ثقة ، وآثرت أن أقيد ما أحب أن أضعه بين يدي سموكم مما
يمليه عليّ الإخلاص للإسلام والمسلمين ، ولهذه البلاد العزيزة المقدسة ،
فأعتمد على هذه الرسالة الخاصة رجاء أن تحظى منكم بلفتة كريمة ، وإن
كانت الرسالة لا تنوب عن حديث القلب مع القلب ، وبثّ الشجون عن طريق
العيون ، ولعل الله يمنّ عليّ بلقاء آخر .

وأرجو أن تسمحوا لي بصراحة التزمته في أحاديثي ورسائلي الخاصة
لجلالة الملك الراحل رحمة الله عليه ، والتي يقتضيها الإخلاص لهذه البلاد
المقدسة ، والأسرة الملكية الكريمة التي اختارها الله أخيراً لخدمة الحرمين
الشريفيين ، وخدمة الإسلام ، والتي يقتضيها الواقع الدقيق الذي تعيشه هذه
البلاد والأمة الإسلامية .

إنني أعتقد يا صاحب السمو الملكي ! أن هذه البلاد تمرّ الآن بأدق مرحلة
مرت بها في تاريخها الطويل ، ويزيد الأمر خطورة ودقة وجود مركز الإسلام
في هذه الرقعة ، وارتباط مصير الإسلام والمسلمين ومستقبلهم به ، وهو الخط
الأخير في جبهة الوجود الإسلامي ، إذا تخطاه العدو ، أو إذا انسحبنا عنه ،
فلا أمل في بقاء الإسلام وعزّ المسلمين .

إنني أشعر بأن هذه البلاد بين خطرين عظيمين ، أو بين فكّي الأسد ، أما

الخطر الخارجي فلا أطيل الحديث عنه فإنه واضح ، فالشيوعية زاحفة من عدة جهات ، وأعداؤنا بالمرصاد ، يريدون أن ينتهزوا أول فرصة ، والدوافع معلومة لا تحتاج إلى إيضاح ، منها علمهم بحساسية هذا المركز ، وأنه أقصر طريق وأضمنه للاستحواذ على ثروة هي وريد الصناعة والمدنية ، والقوة الحربية اليوم وهي النفط ، وقد أصبحوا تتحلب أفواههم على ما أكرمكم الله به من رخاء وثناء ، ومنايع الثروة والطاقة - أعاذكم الله من شرهم - وأنتم - والحمد لله - أبصر بالأخطار المحدقة بكم ، وقد أصبحت من الواضح بمكان لا تحتاج معه إلى تفصيل أو تجسيم ، وفي وجود إسرائيل على طرف الشام ، واتجاه الدول المحيطة بالجزيرة ، ثم في حوادث لبنان الأخيرة ، ما يغني عن التوسع في هذا الموضوع .

أما الخطر الداخلي فهو عندي أعظم من الخطر الخارجي ، فبكل صراحة يا سمو الأمير : إن البلاد اليوم سائرة في طريق الانتحار . تجتاح الشعب اليوم موجتان عارمتان ، إحداهما موجة النهامة بالمال واستثماره والزيادة فيه ، والوصول إليه من كل طريق شرعي وغير شرعي ، نسيت معها جميع القيم الدينية والخلقية واحترام الإنسانية ، ومصالح المقيمين والوافدين من أنحاء العالم الإسلامي ، تستطيع أن نعبر عن هذه الظاهرة بهستيريا المادية والتكاثر ، نشأت عنها مشكلات طريفة معقدة أصبحت منها البلاد في خطر .

والموجة الثانية هي الشغف الزائد بطرق التسلية والمتعة ، فالبلاد تسبح اليوم في فيض من الأغاني وأنواع اللهو والتمتع ، والتهرب من كل ما يشقُّ على النفس ويطلب الصبر وعلوَّ الهمة ، وبذلك يتجرّد الشعب العربي المسلم الذي عرف في التاريخ بالتقشف والبساطة والفروسية التي استطاع بها أن يضطلع بأمانة الإسلام ويتغلّب به على الشعوب التي أنهكها أدواء المدنية والترف عن كل أوصاف الرجولة والفتوة ، وإذا استمرت هذه الحال مدة فإنه سينشأ جيل مائع رقيق متخنث لا يستطيع أن يقاوم أيّ تحدٍّ من الخارج أو الداخل ، ويحفظ سلامة البلاد فضلاً عن أن يبلغ رسالة الإسلام ، ويكون قدوة صالحة وأستاذاً موجهاً لمن يفد إلى هذه البلاد للحج من جميع أنحاء العالم الإسلامي .

وقد علّمنا تاريخ الأمم والبلاذ ، والمدنات والتارنخ الإسلامى - كما قلت فى كتاب خاص كتبتة إلى جلالة الملك فىصل رحمة الله عليه - أن هذه الطبقة هى التى شكلت الخطر دائماً على الحكومات ، وهى التى قادت الثورات والانقلابات لما أصابها من البطر ونكران الجميل ، والحب الزائد للمال ، والحصول على وسائله وطرقه ، والجرأة على الله ، وتجرؤ القلوب عن خشيتة ، والإخلاد إلى الراحة ونعيم الدنيا ، والحرمان من الخلق الكريم ، وهى تجربة تكررّت فى التاريخ بحيث لم تدع مجالاً للثقة بهذه الطبقة ، والزيادة فى أسباب ترفيها وإرضاء رغبتها فى التسلية والمتعة الرخيصة ، وهى الغلطة التى ارتكبتها حكومة بنى أمية وحكومة بنى العباس ، نرى آثارها ومظاهرها فى روايات « الأغاني » و« كتاب الحيوان » و« ألف ليلة وليلة » .

إن الطبقة الوحيدة ، يا صاحب السمو ! التى ينبغى أن نعتمد عليها فى الإخلاص ، ومعرفة الجيل ، وحراسة البلاذ والمقدسات الإسلامية ، وحماية الكرامة والأعراض ومقاومة العدو ، هى الطبقة التى ربيت تربية دينية خلّقية ، ونشأت على العقيدة الصحيحة والخلق السليم والاستقامة والتماسك ، وشيء من القناعة والتقشف ، وإيثار الآجلة على العاجلة ، والحمية الدينية ، والغيرة الإسلامية ، وإن ذلك يحتاج إلى نظرة جديدة فى سياسة التربية والإعلام وتوجيهها إلى تحقيق هذا الغرض وإنشاء جيل مؤمن ، متخلق بالأخلاق الإسلامية ، وخصائص الأمة العربية الأولى التى ساعدت فى نشر الإسلام والجهاد فى سبيله ، وإنشاء الإمبراطورية الإسلامية التى كان أولها فى الغرب وآخرها فى الشرق ، والذى يعرف رسالته ويؤثرها على كل رسالة ويغار عليها ، ويستमित فى سبيلها ، وذلك يتوقف على خطوة جريئة حاسمة مؤسّسة على الاجتهاد والاستقلال الفكرى ، والابتعاد عن شوائب التقليد ، والتخطيط الذى لا يتفق مع شخصية هذه البلاذ ورسالتها .

إن أخوف ما نخاف على هذه البلاذ وعلى العالم الإسلامى ، هو أن تتجرّد هذه البلاذ المقدسة والشعب العربى السعودى الكريم وخاصة جيران البيت الحرام والمسجد النبوى عن شخصيتهم المثالية ومركزهم القيادى ، بل عن

شخصيتهم الإسلامية ، والتنكر لها والاستنكاف عنها ، وأن تنشأ بينهم وبين الحرم وما قام له ويقوم ، فجوة واسعة عميقة لا تتردم ، ولا يقوم عليها جسر ، فيعيش كل واحد منهما في عزلة عن صاحبه ، وقد تكون صلة المسلمين في بلاد العجم والآفاقيين أقوى وأعمق ، من صلة الذين يعيشون في رحاب الحرم وظلال الكعبة ، وهو خطر قد ظهرت طلائعه بتأثير طرق التربية والإعلام ، وتدفق الثروة ، وتوفر وسائل الترفيه والتسلية توفراً لا يوجد له نظيره في بلد إسلامي آخر ، وفقدان القدوة الصالحة والنماذج العلمية في القناعة والتماسك وسمو النظر ، وبسبب ضعف الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتأثير المدنية الغربية وقيمها ومثلها من غير نقد وتمحيص ، وتأثير الصحف والمجلات الرقيقة ، والروايات المثيرة للغرائز ، التي تنصب على هذه المملكة من زمن طويل ، رغم جهود الغيارى من المسؤولين ، ورغم كراحتكم لها وتوجيهاتكم السامية إلى مراقبتها ، وقد قضى الله أن تكون هذه الجزيرة حرماً للإسلام وحمى له ، وأوصى بذلك رسول الله ﷺ فيما أوصى به في آخر عهده بالدنيا ، فقال : « لا يجتمع بجزيرة العرب دينان » ، وقال : « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » . وعدم اجتماع دينين ، وإخراج اليهود والنصارى من هذه الجزيرة ؛ الذي أمر به الرسول ﷺ ، يحمل أبعاداً ومعاني أوسع مما يبدو ظاهراً من اللفظ ، فهو يشمل إبعاد أثرهم ، وتغلغل حضارتهم وقيمهم في هذه الجزيرة ، وخطر نشوء جيل ليس بينه وبين الحرم ومسجد الرسول ورسالتهم تجاوب وانسجام ، وتفاهم ، واتفاق ، بل بينهما بالعكس تباعد وتجاف ، خطر لا يوجد له نظير في التاريخ الماضي ، ووجوده - لا سمح الله بذلك - خطر على سلامة البلاد وكرامتها ، يحرك الغيرة الإلهية كما وقع ذلك مراراً في التاريخ ، ونعيذ هذه المملكة وعلى رأسها الأسرة السعودية الكريمة التي كان قيامها على الدعوة إلى التوحيد والدين الخالص ، والعودة إلى عصر الإسلام الأول ، وتحكيم الكتاب والسنة ، من أن يقع هذا الخطر بين سمعها وبصرها ، وفي وجود عاهل الجزيرة الكريم وإخوته الغر الميامين ، وفي مقدمتهم صاحب السمو الملكي الكريم الأمير فهد بن

عبد العزيز أمل كبير في دفع هذا الخطر ، ووقاية البلاد منه .

ولا ينقذ هذه البلاد المقدسة ، وهذه المملكة العزيزة التي هي مناط آمال المسلمين ، وموضع ثقتهم من هذا الخطر الداهم ، إلا الرجل القوي الأمين الذي ينهض لدرء هذا الخطر ، ويضحى في سبيله بلذته وراحته ، وكل ما يحجب إلى النفس من تمتع ورخاء ، ولا لذة فوق لذة الإيمان والكفاح لإنقاذ البلاد والعباد ، وحماية الإسلام والمسلمين ، وتأمين مستقبلهم ، وإرضاء الله والانخراط في سلك المجاهدين والمجددين الذين قيضهم الله لكل عصر ولكل فترة حالكة ومحنة قاسية ، ولكم في سيدنا عمر بن عبد العزيز أولاً ، وفي السلطان صلاح الدين الأيوبي آخراً أسوة حسنة ، فقد قام كل واحد منهما في عصره حين اشتدت بالإسلام المحنة - ﴿ بَلَّغْتَ أَلْتَرَاقِي ﴾ (٢١) ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ - بدوره القيادي الذي كان خطأً فاصلاً بين عهدين ، وغير مجرى التاريخ وأرغم المجتمع المعاصر على أن ينحو نحواً جديداً ، وكان خطوة مباركة أثنت عليها الملائكة والروح ، وخلد الله ذكرها ، واعترفت الأجيال القادمة بفضلها .

وهذه البلاد ، والمسلمون الذين ارتبط مصيرهم بها في مشارق الأرض ومغاربها ، ويتطلعون بصبر نافذ وقلب مضطرب إلى طلوع نجم جديد من أفق هذه الجزيرة ، فلم يغب لها نجم إلا وطلع لها نجم آخر ، وقد أغاث الله هذه المملكة وهذا البيت الكريم بفصل العظيم ، والناس والبلاد في أشد حاجة إلى قائد يرفع راية التضامن الإسلامي ، ويرد إلى هذه البلاد والمملكة اعتبارها ، ويرغم الخصوم لاحترامها والحساب لها ، ويعنى بالقضايا الإسلامية عناية الأب الحنون ، حين طمع الأعداء في هذه الجزيرة وهذه المملكة ، وحين شئوا الغارة الشعواء عليها وتداعت أركانها وقواعدها ، وليست هذه الفترة التي تمر بها هذه البلاد وهذه المملكة أقل دقة وأعظم خطراً من الفترة التي نهض فيها فيصل العظيم ، بل قد تكون أكثر دقة وأعظم خطراً منها ، وأملنا في الله أن يقيض لهذه المملكة قائداً لا يحفظ هذه البلاد من الأخطار المحدقة بها فحسب ، بل ويحفظها من الفتن الداخلية أيضاً ، ويعنى بردم هذه الفجوة التي تحدثنا بها وإبعادها ، ويعنى بإخضاع جميع الوسائل التي أكرم الله بها هذه

المملكة لتربية أبناء هذه البلاد ؛ بناءً على أن هذه الجزيرة - في وجودها وكيانها اليوم - مدينة للإسلام والنبوة المحمدية ودعوتها وجهادها وتربيتها ، وأبنائها أمانة مقدسة عزيزة عند من يشرفهم الله بالوصاية عليها والقيام بشؤونها ، يربهم كما يرضاها الإسلام ويريدها لأبناء مركز الإسلام ، وكما كان يربها الرسول وأصحابه إن كانوا أحياء ، ويحرص كل الحرص على أن يكون هذا البلدُ البلدَ المثالي لمن يقد إليه حاجاً معتمراً ، وزائراً ، يستمد منه الإيمان والحنان ، ويشحن بطارية قلبه وعقله بشحنة إيمانية ، ويكون كل تخطيط مطابقاً لرسالته وشخصيته محققاً لهذا الغرض .

وقد أطلت عليكم يا صاحب السمو الملكي في هذه الرسالة فإن الحديث ذو شجون ، وأستسمح من سموكم العفو وأسأل الله العليّ القدير أن يحفظكم ويقوّيكم ، ويطيّل حياتكم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ، ولائق التحية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المخلص

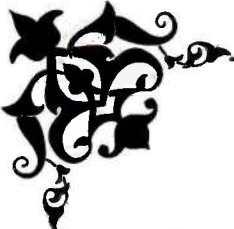
أبو الحسن علي الحسيني الندوي

إلى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز
(ملك المملكة العربية السعودية)

رسالة دعوية مُخلصة

شعر العلامة الندوي بحاجة إلى أن يوجّه رسالةً دعويةً مُخلصةً إيجابيةً إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ، الذي أتاح الله له فرصة لتقديم نموذج للحكومة الإسلامية الراشدة ، وقد سبق أن رفعت الصوت ضدّ الغزو العراقي ، واستنكرت هذا العمل الإجرامي الشنيع استنكاراً شديداً ، واحتجت عليه احتجاجاً عنيفاً على منابر مختلفة ، وانتقدت نوايا الرئيس العراقي ، وأفكاره الشيوعية .

وقام العلامة بذلك باعتباره فريضةً دينيةً ، وواجباً شرعياً على أساس دراساته الشخصية ، ومعلوماته الواسعة ، وتجاربه العميقة ، وأراد أن يلفت في هذه الرسالة نظر جلالة الملك فهد بن عبد العزيز إلى هذه المرحلة الدقيقة الخطرة التي يمرّ بها العالم العربي الإسلامي ، وإلى الحاجة إلى بذل المجهودات والمحاولات ، لإيجاد مجتمع إسلامي أفضل إلى حد ممكن ، وسدّ الثغرات التي تحول دون تأييد الله ونصره ، وإلى الإنابة إليه ، والاستغفار منه ، وإلى الاستنارة بسير الخلفاء الراشدين .



فكتب العلامةُ إليه هذه الرسالة ، وقرأها جلالة
الملك وأمعن النظر فيها ، وردَّ عليها بتوقيعه ردّاً كريماً
واقعياً ، وإليك نص رسالة العلامة :

حضرة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله
وقوّاه وحماه !

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

فإنّ شعور هذا الكاتب - الفقير إلى رحمة الله - بواقع العالم الإسلامي الأليم ، وما يواجهه مركز الإسلام - الجزيرة العربية بما فيها الحرمين الشريفان - والأقطار الإسلامية من تحدّيات وأخطار ، يدفعه - وهو يتشرف بتقديم بعض مؤلفاته إليكم - إلى توجيه هذه الرسالة المخلصة إلى من يعتبره الكاتب أجدر الناس وأقدرهم لمواجهة هذا الواقع الخطر ومعالجته ، ولو استطاع أن يضع قلبه الخفّاق ومخّه المتألّم في هذه الرسالة المتواضعة ، ويكتبها بدمعه ودمه بدل الحبر الذي يكتب به ، ولو استطاع أن يستغني عنها بالمثل والحديث الشفوي لفعل ، ولكن الأوضاع في بلاده الآن وعدة عوائق أخرى ، تمنعه من ذلك ، فيستعين بهذه الرسالة المخلصة توكّلاً على الله ، ثم اعتماداً على ألمعية المکتوب إليه ، حفظه الله ورعاه ، وفراسته وتقديره لكل ما يقدّم إليه من آمال وأعمال ، وحقائق راهنة ، ومتطلّبات مخلصه ، فيقول وبالله التوفيق :

إنّ العالم الإسلامي اليوم بصفة عامة ، والجزيرة العربية والبلاد المقدّسة بصفة خاصة ، تمرّ اليوم بمرحلة دقيقة عصيبة مصيرية ، لا تتحمل تأخير ساعة ، ولا ادّخار مجهود في مواجهة هذا الوقع ، ومعالجة هذا الوضع الخطير ، وقد تفاقم الخطب ، وكاد قول الله يصدق على الوضع الحاضر :

﴿ بَلَغَتِ التَّرَافِيَ ۖ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۚ ﴾ [القيامة : ٢٦ - ٢٧] .

والفقير ضناً بوقتكم الثمين ومسؤولياتكم الضخمة يلخّص القول بقدر الإمكان ، ففي ذكائكم ومعرفتكم للدين ، ودراستكم وتأملاتكم في القرآن العظيم ، والحديث النبوي الشريف ، والسيرة النبوية العطرة ، وتاريخ الأمم

والمجتمعات ، ما يغني عن التطويل :

١ - إن أنفع شيء وأجداه في ضوء القرآن والسنة ، وتاريخ الدعوات والقيادات والتطورات والانقلابات ، هو الصلح مع الله ، والإنابة إليه ، وتغيير ما يمكن تغييره في حياة الفرد والمجتمع ، وتطبيق ما يمكن تطبيقه في حياتهما ، من الإصلاحات وإزالة المنكرات ، وما يُبعد من رحمة الله ، ويحول دون نصرته ، من تناقضات أو تساهلات في الإطار الفردي والاجتماعي والإداري والسياسي ، والقرآن شاهد على ذلك ، وفي السنة الصحيحة والأسوة النبوية ، وسيرة الخلفاء الراشدين ، والملوك الصالحين ، نماذج من ذلك ، لا تحتاج إلى تفصيل وتعيين أسماء وحوادث ، وذلك أكبر مؤثر ، وجالب لرحمة الله تعالى ، ومغيّر لمصير الأمم والمجتمعات عند الأزمات ، لا يعادله شيء آخر من الأسباب المادية والطاقات العسكرية ، وحماية الحكومات العربية ومؤازرتها ، مع أهمية ذلك كله .

٢ - ملء فراغين عظيمين في حاضر الأمة الإسلامية - بجميع شعوبها وأقطارها - قد جنيا على كيان الأمة الإسلامية ، وشقّ الدعوة الإسلامية طريقها إلى الأمام ، وتسخير القلوب والعقول بقبولها ، بل وعلى التأمل فيها ، وعرضاً حاضر هذه الأمة ، ومستقبل الوجود الإسلامي لخطر الردّة الحضارية والانحرافات العقائدية والسلوكية ، لا بدّ من ملئهما في أقرب وقت :

أولاً : عدم وجود مجتمع إسلامي مثالي يرضاه الله تبارك وتعالى ، ويكون نموذجاً ، بل مرآة للتعاليم الإسلامية في العقائد أولاً ، ثم في الأخلاق والمعاملات وشُعَب الحياة ثانياً ، يتنفس فيه الإنسان في طمأنينة وسكينة ، ويشمّ فيه رائحة الإيمان ، ويشعر بالسعادة الحقيقية ، وكأنه انتقل من الجحيم إلى الجنة ، ومن الشقاء إلى السعادة ، ويرى فيه التعاليم الإسلامية والمبادئ الخلقية تُطبّق عملياً ، ويرى الإسلام يسعى على قدميه ، ويتكلّم بلسانه ، ويسود على المجتمع ، من المسجد إلى السوق ، ومن المحاكم إلى البيوت ، ومن العقائد والمعاملات ؛ ذلك المجتمع المثالي فُقد اليوم تقريباً ، وإعادة من حاجات الإسلام ، بل من حاجات العالم الأولى .

ومن المعلوم الظاهر أن الحكومة السعودية التي نشأت وقامت على الدعوة وسعدت بالوصاية على الحرمين الشريفين والبلاد المقدسة ، التي هي محط أنظار شعوب العالم ، ومورد المسلمين السنوي الأكبر - بفضل الحج ، ووجود الحرم المكي الشريف ، والمسجد النبوي الشريف - أقدر على إبراز هذا المجتمع وتمثيله ، ويقترن بذلك تأييد الله تبارك وتعالى ونصرته وحمايته .

ثانياً : والفراغ الثاني هو عدم وجود قيادة إيمانية دعوية قوية في العالم الإسلامي ، تقتزن بصفات الرجولة والطموح ، وعلو الهمة وبُعد النظر والقدرة على مواجهة القوى العالمية الرئيسية القائدة ، التي تملك زمام القيادة البشرية ، وأصبحت تتحكم في مصائر الشعوب والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية ، من غير حق ومبرر ، كما ينبغي أن تتصف هذه القيادة بروح التضحية ، والبطولة ، والجلادة ، وشيء من التقشف ، والقدرة على المبادرات ، وذلك لأن الناس ما زالوا مفطورين على حب روح الطموح والإقدام ، وتحدي القوى الكبيرة - ولو تظاهراً أو دعاية - لأن ذلك مما يؤثر في عقيدتهم واتجاههم ، إذا كان هؤلاء المتظاهرين أصحاب ضلال أو إلحاد - فضلاً عن الانحراف في السلوك والعمل - أو كانوا متصلين بفكرة أو فلسفة إلحادية ، أو مؤامرة مسيحية صليبية « كبعض الأحزاب في الشرق الأوسط » ؛ فإن الناس ، خصوصاً الشباب الطموح الكاره للقوى العالمية المؤيدة لكل محاولة أو مخطط ضد الإسلام والمسلمين ، أصبحوا يرحبون بكل ما يواجه هذه القوى بشجاعة - ولو مصطنعة - أو تحد - ولو بلسان دعائي - فيؤثر ذلك في العقيدة ، وتعيين المواقف إزاء الحكومات الإسلامية ، ولا شك أن وجود الفراغ من شيء ضروري وفي مصلحة معقولة ، أمر غير طبيعي ، لا يصلح للبقاء طويلاً .

فلا بد من ملء هذا الفراغ ، وصرف المتدمرين من تأثير الطاقات الكبرى في السياسة العالمية ، وقدرتها على التدخل في شؤون الأقطار الإسلامية ، في سياستها وقيادتها ، من الاندفاع إلى هؤلاء القادة الملحدين المتظاهرين ، إلى

قادة مخلصين متدينين سليمين ؛ والحكومة السعودية أجدر ، بل وأقدر عليه بتشرّفها بخدمة الحرمين الشريفين ، ومركزها في الجزيرة العربية ، وحملها للعقيدة الإسلامية الصحيحة ، ويُعدها عن فساد العقيدة والبدع والمنكرات ؛ وأنتم يا خدام الحرمين الشريفين ، جديرون بذلك بما حباكم الله به من طيب المَحْتَدِ وكرامة المَوْلَد ، ما عرف من تاريخ أسرتكم في القديم والحديث من اعتمادها على الله ، وتحكيمها لكتابه ، والتزامها بنهج رسول الله ﷺ .

وموجز القول : إنّ العالم الإسلامي اليوم يرنو ببصره إلى من يمثل دور الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز في نهاية القرن الإسلامي الأول ، في زهده ، وبساطة معيشته ، وإقامة الحكم الصالح ، والتأثير في المجتمع الإسلامي الواسع ، وصرفه عن الترف وتقليد الأمم البطرة ، العابدة للنفس والشهوات ؛ إلى الاقتصاد في المعيشة والإقبال على الآخرة ، والتمسُّك بالقيَم والمُثُل الإسلامية ، وقد تحقّق ذلك في ستين وخمسة شهور لإخلاصه ، وصرامته وقوة إرادته ، وحياته الشخصية المثالية .

أو يرنو ببصره إلى السلطان المظفّر الصالح ، المجاهد البطل ، السلطان صلاح الدين الأيوبي رجل القرن السادس الهجري ، الذي خضد شوكة الصليبيين ، واستردّ القدس وفلسطين ، وحافظ على المملكة الإسلامية الواسعة ، والبلاد المقدّسة ، والأقطار العربية ، وكل ذلك بإيمانه العميق المتغلغل في الأحشاء ، وشغفه بالجهاد ، وسيرته الإسلامية الصالحة الزاهدة ، وصموده وحكمته القيادية .

ولعلّ مشيئة الله قد هيأت جلالكم - وقد نشأتم في مهد الإسلام وعرين الأسود وموطن الأبطال - لتكونوا من هذا الطراز الفذّ ، إذا صحّ العزم ، وقويت الإرادة ، وحالف التوفيق الإلهي ، ما شيء من ذلك على الله بعزير ، وسيكون ذلك اليوم أسعد يوم في تاريخ الإسلام والمسلمين منذ أمد بعيد ، إذا ينشد المسلمون :

هذا الذي كانت الأيام تنتظر فليوفّ الله أقوام بما نذروا

الداعي لكم ولأسرتكم ، ولطول حياتكم وتوفيقكم^(١) .

المخلص

١٧/ جمادى الأولى ١٤١١ هـ ، ٦/ ١٢/ ١٩٩٠
أبو الحسن الندوي

(١) ردّ خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز على رسالة العلامة الندوي :
فضيلة الشيخ أبي الحسن الندوي سلّمه الله .
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد : فقد تلقيت رسالتكم الطيبة ، بما تضمّنته من شعوركم الإسلامي المخلص عن واقع الأمة الإسلامية ، وما تواجهه في هذه الظروف من تحدّيات في حاضرها ومستقبلها ، وأشكر فضيلتكم على ما أشرتُم إليه نحو المملكة العربية السعودية ، ونحو شخصي ، ونؤكّد لكم بأننا لم ولن ندّخر جهداً نستطيعه في سبيل رفعة الإسلام ، وخدمة المسلمين في كل مكان ، انطلاقاً من السياسة التي درجت عليها المملكة العربية السعودية ، في السير على هدي كتاب الله الكريم ، وسنة رسوله المصطفى محمد ﷺ ، في كلّ شأن من شؤونها .

إننا في هذه البلاد ندرك بأنه لا عزّ لهذه الأمة ولا حياة ولا تقدم إلّا إذا التزم بكتاب الله وهدي رسوله التزاماً صادقاً ، واستنارت بسيرة الخلفاء الراشدين والتابعين والمصلحين ، الذين عرفهم تاريخها ، ولا شكّ بأنّ ما يقع لهذه الأمة من أحداث وأزمات هو اختبار لمدى إيمانها ، والتزامها بما أمر الله به ، وانتهائها عما نهى عنه . وفي هذا الوقت الذي تجابه فيه الأمة الإسلامية هذه التحديّات نرجو الله القدير ، ونضرع إليه بأن يحقّق لها ما وعدّها به من النصر والتمكين في الأرض ، وأن يردّها عنها كيد الأعداء ويمنحها الثبات .
والله يراعكم .

أخوكم

خادم الحرمين الشريفين

فهد بن عبد العزيز آل سعود

ملك المملكة العربية السعودية

الرياض في ١٢ شعبان ١٤١١ هـ

الموافق ٢٦ فبراير ١٩٩٠ م

إلى السيدة أنديرا غاندي
(رئيسة وزراء الهند)

رسالة مفتوحة

لم تحقق الأعوامُ الخمسةُ من حكومة أنديرا غاندي ورئاستها للوزراء آمال الناس التي علّقوها بحكومتها إذ فُرِضَ تحديد النسل على الشعب بجهرٍ وإكراهٍ ، وقد نفَّذ ذلك في مختلف المناطق الهندية بشدّةٍ وعنف ، فقد تغيرت مشاعر الناس ونظرتهم عن الحكومة أنديرا غاندي ، وفي جانب آخر كان ابنها الأصغر « سنجي غاندي » برز على مسرح الحكومة كأقوى شخصية ، وأملكها لزام البلاد ، وقد كان مأخوذاً بقوته وشبابه ، لا يعرف هواةً ولا عطفاً ، ويسرع في الحكم ، ويفرط في التنفيذ حتى ولو على الأشلاء ، وكان قد حمل لواء حركة تحديد النسل ، واستعمل فيه كل وسائل الإرهاب والعنف ، وأذى كل من حاول الفرار ، أو رفع صوت الاحتجاج ، ولم يكن يُراعى في تنفيذ هذا القرار الأعمى عمر الفرد ولا مكانته ولا حالته الصحية ، ولا تزوجه أو عزوبته ، فقد استولى على البلاد جوّ الإرهاب ، والخوف والرعب ، لقد كانت الحالة من الذل والرعب والخضوع المكره ، والعجز والضياع في الناس المثقفين ما كانت عند هزيمة المسلمين أمام الإنكليز عام ١٨٥٧م واستيلائهم على البلاد .

رأى العلامةُ الندوي في هذه الأوضاع الشاذة وحالة
الخوف والإرهاب أن يقوم بمحاولة - كأحد أفراد هذه
البلاد الذي يملك القلب والضمير ، وكمواطنٍ واعٍ
وعالم من علماء الدين - لمقابلة رئيسة الوزراء السيدة
أنديرا غاندي ، والتحدّث معها في هذه الأوضاع وما
تجرّ على البلاد من شقاء ودمار ، وقرّر أن يكون هذا
اللقاء شخصياً وخاصاً ، فكتب إليها يطلب موعد
اللقاء ، فقبلت رئيسة الوزراء اللقاء ، وتحدّث العلامةُ
معه في أوضاع البلاد الراهنة ، وقَدّم إليها هذه
الرسالة ، وكان مما جاء فيها :

المكرمة أنديرا غاندي - رئيسة وزراء الهند - تحيات طيبة .

لقد توتر الوضع وازداد سوءاً من ستة أشهر من حيث بدأ تنفيذ تحديد النسل بشدة وعنف ، وأخاف أن الأخبار الصحيحة لا تصلك ، وإلا فكان من غير المعقول أن تتركي الأوضاع تظل من سوء إلى أسوأ ، وأن الوضع الصحيح أن حكومات الولايات - على عكس مقاصد المشرفين على الحكومة والمسؤولين عنها - قد اتخذت تنفيذ هذا القانون ، والحصول على النجاح وسيلة هيئة للبقاء في السلطة والجاه ، وهم يتسابقون في هذا ، ويقع بسبب ذلك من المعاملة ما يقع من حكومة أجنبية ذات عقلية إدارية مكلمة وعمالها وأذئابها مع المواطنين الآمنين الوادعين ، وقد أنتج ذلك أن تحوَّلت هذه البلاد إلى ثكنة يسودها القلق والرعب والخوف ، ويرتكب الناس لتحقيق مآربهم التافهة والوصول إلى الهدف المطلوب من تحديد النسل كل الأعمال الخسيسة والوحشية ، فيضطاد العمال المساكين والقرويون والمحترفون مثل اصطياد الوحوش والطيور في الغابات ، وتستخدم وسائل التهيب والعنف والإطماع والترغيب حتى يكملوا هدفهم ، ويشترط للمحافظة على الترخيصات الرسمية للتجارات أو الحصول على الترخيصات الجديدة أن يقدموا كذا عدداً من الأفراد لتحديد النسل ، وأصبح الموظفون الذين هم العمود الفقري للحكومة والذين كانوا يتمتعون بحرية واحترام زائد إلى الآن ، يعيشون في خوف وقلق ، والأساتذة والمدرسون الذين عليهم عهدة تربية الجيل الجديد يعانون من الاضطراب النفسي والعقلي الشديد ، وعاد هذا الموضوع حديث النوادي والمجالس ، والناس في همّ وعذاب وبلاء .

وكان نتيجة هذه الأوضاع الطبيعية ذلك الانحطاط الخلقي الذي يسببه الخوف والطمع في بلاد عمّ فيها الجهل من سابق ، ومن أخطر الجوانب وأشدّها أسفاً أن أهل البلاد يكادون يُحرّمون من الشعور بكرامتهم وثقتهم

بأنفسهم ، التي كانت وجدت بفضل جهود حركة المؤتمر الوطني ، وجهود حركة الخلافة ، ومساعي قادتنا السياسيين : غاندي ، ومولانا آزاد ، ومحمد علي ، وأسرة نهرو ، وظلت البلاد تشعر بأنها لا تزال تعيش حياة العبودية والقهر والذل ، ولعله ما تمر لحظة يشعر فيها أي إنسان في هذه البلاد بأنها بلاد حرة ديموقراطية ، بعيدة عن كل إجبار وإكراه وعنف ، استطاعت بجهودها أن تنال حريتها واستقلالها من حكومة أجنبية وأخذت بيدها زمام أمورها .

ولا أرى أحرص على إيجاد هذه الثقة والاعتماد وأقدر لها وأكثر شعوراً بقيمتها وضرورتها من أعضاء أسرة نهرو ، فإن لهذه نصيباً أساسياً في هذه الجهود ، وقد سقوا هذه الشجرة بعروقهم ودمائهم ، فكيف يسوغ أن يروا هذه الشجرة في عهد حكمهم وهي تذوي وتصفّر ؟ لقد مسّت الحاجة الآن إلى مراجعة الأوضاع في البلاد ، فإن أي شعب إذا تعود على العبودية والجبن والخوف ، وفقد صفات الجرأة والطموح ، والثقة ، وعمل - عكس ما يحب ويريد - تحت ضغط الخوف ، أو طمع المال ، واعتقد أن المحافظة على الحياة والمنصب والوظيفة أهم شيء ، ولو على حساب الضمير ، والغيرة ، والثقة بالنفس - فإنه لا موضع للطمأنينة والاستبشار لهذا الشعب مهما تقدم سياسياً واقتصادياً وتعليمياً في الظاهر ، فإن البلاد بالشعوب ، وليست الشعوب بالبلاد ، والشعوب لا تعيش إلاّ بسيرتها وصفاتها الباطنة الصالحة ، وعزتها وجرأتها الخلقية ، لا بوسائل معيشتها وارتفاع مستوى حياتها .

وقلت : (إنه لمن الفشل والخيبة لحركة تحرير البلاد وجهودها وقادتها أن يضطر الناس إلى تذكّر عهد العبودية والحكم الأجنبي ، وإنه عار أن يتذكر الناس اليوم عهد الإنكليزي ، ويتمنوه)^(١) .

المخلص

أبو الحسن علي الندوي

(١) هذه مقتطفات من رسالة العلامة الندوي إلى رئيسة الوزراء ، وهي مأخوذة من « في مسيرة الحياة » للعلامة الندوي .

إلى أنديرا غاندي (رئيسة وزراء الهند)

رسالة تاريخية

لقد عقدت حركة « ويشهند وبريشد » جلسة سرّية في ٧ - ٨ / إبريل / ١٩٨٤ م ، شارك فيها عامة الهندوس المتطرفين ، وقد صدرت فيها قرارات بإبادة المسلمين وتصفيتهم ، حتى لا تبقى على أرض الهند جماعة أو منظمة أو حركة باسم الإسلام ، وانصرفت الصحافة الهندية والإنكليزية في تلك الآونة بكل حماسها واندفاعها وحميتها في تأييد هذه المطالبة ونشرها على النطاق الواسع ، لقد كان هذا الواقع خطراً كبيراً على الملة الإسلامية الهندية .

وقد كان العلامة الندوي قد آتاه الله تعالى - لنشأته في بيئة دينية خاصة ودراسته للكتاب والسنة ، والتاريخ الإسلامي دراسة بصيرة - هذا الإدراك العام ، والواقع أنه تَفَطَّن أن هناك خطراً كبيراً - لا سمح الله - أن تتحول هذه البلاد إلى إسبانيا الثانية (الأندلس ، الفردوس المفقود) ، وهو ما يحلم به الهندوس المتعصبون من زمن غير قليل .

وقد كانت المحاولة المؤثرة الأولى في نظر العلامة هي إقناع شخصية كبيرة بخطر هذه الدعاية وآثارها . كانت أكبر شخصية حكومية في البلاد (رئيسة الوزراء) ، فكتب العلامة رسالة طويلة إليها .

ولا تزال لهذه الرسالة خطورتها وأهميتها وفائدتها ،
فلم يكتفِ العلامةُ فيها بالتنبيه إلى خطر حركة الإحياء
الهندوسية التي هبَّت كعاصفة شديدة ، بل لَفَتَ فيها الانتباه
إلى الفوضى الخلقية والفساد العام الذي ينخر البلاد ويأتي
على الأخضر واليابس ، وتستحق هذه الرسالة أن يدرسها
قادة البلاد ورؤساء الحكومات والمسؤولون الإداريون
والمتقفون المعاصرون ، بل قادة الجماعات الإسلامية
والسياسيون والمتقفون المسلمون أيضاً . لأنهم أحق بأن
يفكروا هذا التفكير ويتخذوا هذا المنهج في عرض وجهات
أنظارهم أمام مسؤولي الحكومة ، والمخلصين الأوفياء
لهذه البلاد ، كانت الرسالة باللغة الإنكليزية ، وهي أمانة
تاريخية ووثيقة باقية إن شاء الله ، وإليك نصّها كما يلي :

المكرمة أنديرا غاندي - رئيسة وزراء الهند -

تحيات طيبة .

إنني أشكر دولتك على إتاحة فرصة طيبة لي للحدّث كتابياً ، في وقت تمرّ فيه هذه البلاد بمرحلة مهمة ومفرق الطرق ، وتحتاج إلى توجيهها بجرأة وذكاء وإخلاص ، ووجهة نظر صالحة تحفظ أهل البلاد من الفوضى وإساءة الظنون فيما بينهم والمشاكل التي لا داعي لها ، وتوحّد صفوفها وتشدّ أزرها .

إنني لا أريد أن أنفق وقتك الثمين في القضايا الجزئية ، وفي رفع شكاوي الأقلية الكبيرة (أقلية المسلمين) وذكر حاجاتهم ومتطلباتهم التي رُفعت إليك مراراً ، وتكراراً ، ولا تخفى عليك ، إنّ ما أريد أن أعرضه الآن يتعلق بمصلحة البلاد العامة ، ويكون حديثاً أساسياً .

إن النقطة الأولى التي أريد أن أثيرها هي أنه لا طريق أسلم وأصلح وأضمن لسلامة هذه البلاد وضمّانها وبقائها واستحكامها ، وأدائها لدورها الكبير الرائع في العالم المعاصر وفي الأوضاع المُعقّدة الخطيرة ، من ذلك الطريق الذي اختاره قادة التحرير المخلصون لهذه البلاد : والدك جواهر لال نهرو ، ومولانا أبو الكلام آزاد ، وأصحابهما وزملاؤهما ، وهو طريق العلمانية الصحيح والجمهورية الصادقة ، والوحدة بين المسلمين والهندوس ، مهما كان هذا الطريق طويلاً ، أو صعباً أو عسيراً ، وأن أي طريق يقترح غير هذا الطريق مهما كان سهلاً يسيراً يؤدي إلى نجاح مؤقت ، فإنه مدمر للبلاد ، ويقضي على آثار تلك التضحيات الجسيمة التي قام بها قادة التحرير ، ويعرض هذه البلاد للقضايا والأخطار والتحديات التي لا يستطيع أن يواجهها هذا الشعب .

إن أول ما أريد أن أفضي به إلى دولتك كتلميذ من تلاميذ الديانات والفلسفة والأخلاق والتاريخ البشري ، وأرى أنه سوف لا يقوله من تغلب عليه

النزعة السياسية أو المنهج السياسي ، هو أن هذه البلاد إنما تواجه خطرين رئيسيين كبيرين يستحقّان الاهتمام البالغ ، أحدهما : الميل الجامح إلى الظلم والعدوان والعنف ، والاستهانة بالأنفس والأموال والأعراض ، - من أي طبقة أو فرقة كانت - ومن مظاهر ذلك الاضطرابات الطائفية ، والنظام الطبقي ، واللمس المنبوذ ، وإبادة الأسر والعشائر بكاملها بسبب ذلك ، وقتل النفس لأجل فائدة مالية حقيرة ، والجرائم الوحشية البشعة ، وكثرة المظالم ووقائع العدوان ، وأخيراً مما يندى له الجبين حياءً وتُتَكنس الرؤوس ذلاً وعاراً ، إحراق النساء وهن على قيد الحياة ، أو قتلهن بالسّم لأنهن لم يأتين بالجهاز المطلوب ولم يقمن بالمتطلبات الجائرة .

ومعلوم لدى كل من يعتقد في الديانات أن خالق هذا الكون والمتصرف فيه الذي يحبّ عباده أكثر من الآباء والأمهات ، لا يرضى هذا العمل الوحشي ، بل إنه يمقته ولا يمهلّه طويلاً ، وأنه لا بقاء مع ذلك لأيّ بلد مهما بذلت من جهود وصرفت من قوى وطاقات ، ولا تقدّم ولا رخاء ، ولا يبقى ذلك المجتمع الذي يرى كل هذه الأحداث ويسكت عليها ، أما الذين لا يعرفون للعقيدة الدينية معنى فإنهم لا ينبغي أن يخفى عليهم أن الدول والإمبراطوريات الكبيرة العتيقة - التي كان لها دوي عظيم في عهودها ، ولا تزال نقوشها قائمة على لوح التاريخ - لم تستطع أن تتماسك مع الظلم والعدوان ، وانهارت ودُمّرت تدميراً وأصبحت أحاديث تُروى وحكايات تذكر للعبرة .

فلا بدّ من العناية بهذه الأوضاع الخاصة من دون تأخير ، والحاجة شديدة ملحة إلى أن تكون هناك حركة قوية لمقاومة هذا الوضع الشائن أقوى وأنشط من حركة الانتخاب والقضايا السياسية ، ولا بُدّ من القيام لأجل ذلك بجولات في القرى والأرياف ، والأحياء والحارات ، ووضع القوانين الصارمة ، وإقامة التعزيزات الشديدة التي تكون عبرة ونكالا ، واستخدام وسائل الإعلام كلها (Public Media) وإدارتها بكاملها (Administration) لمكافحة هذا الوباء ، وإلا فلا بقاء للبلاد .

والشيء الثاني الذي يستحق العناية والمعالجة ، هو موقف الليونة

والمجاملة مع حركة إحياء الهندوسية (Hindu- Revivalism) ، والمنظمات المتطرفة كحركة « هندو بريشد » و« شيو سينا » و« آر ، ايس ، ايس » ، والميول والنزعات المتطرفة الداعية إلى العنف والعدوان ، إن هذا الموقف يمكن أن يجبر للحكومة بعض المنافع والمصالح المادية المؤقتة ، ولكن - في نفس الوقت - زرع لأرض البلاد بالألغام والمواد المتفجرة المدمرة التي لا تبقى ولا تذر ، ولقد كان الزعيم غاندي يدرك هذه الحقيقة كل الإدراك ، أن العصبية والكرهية الطائفية والعنف سيؤدي دوره أولاً بين عنصرين مهمين (المسلمين والهندوس) من عناصر البلاد ، ثم يظهر بالتالي في أشكال الخلافات الفرعية الجزئية بين مختلف طبقات الأكثرية ، والحروب بين الطبقات والقبائل والعصبية اللغوية والإقليمية والسلالية ، وحين ينتهي من دوره ، وتأجيج ناره بين هذه الطوائف وفي هذه الأشكال ، تصبح هي نفسها ناراً تتلظى - والنار تاكل نفسها إن لم تجد ما تاكل - تاكل البلاد والأهالي الآمنين ، وتلتهم السكان مطمئنين فتتخطم البلاد ، ولا يبقى إلا الرماد .

ولذلك فإنني أصرّح بأن هذه الحركة العدوانية للإحياء (Revivalism) والعنف ، ومطالبة طائفة واحدة بتغييرها وتخليها عن شخصيتها ومميزاتها الدينية والحضارية ، وتناولها بالنقد والهجوم ، وإيقاظ التاريخ النائم ، بل إحياء التاريخ الميت الذي أصبح نسياً منسياً ، هو كإيقاظ أسد نائم يفترس المارين إذا استيقظ ، والتذكير بالحوادث التاريخية القديمة التي مضت عليها قرون وأجيال وإحيائها ، ونبش القرون ، وإزالة التطوّرات التي طرأت على هذه البلاد عبر القرون ، وتحملها أهلها الواقعيون الغياري برحابة صدر وسعة أفق ، إنما هو في الحقيقة تعويض لهذه البلاد للمشاكل والقضايا والأخطار التي لا حاجة لها ولا داعي إليها ، ولا مُتسع من الوقت عند أهلها للنظر فيها ، وتصرف بها طاقات الحكومة والإدارة إلى غير جهتها وفي غير موضعها ، كان واجبنا أن نُوفّر لبناء هذه البلاد وإحكامها ، والحفاظ عليها .

فيجب أن تردم الفجوة قبل أن يفوت الأوان ، ويسد ما وقع من شقوق في سدّ البلاد بقليل من العناية والجهد قبل أن يتسع الخرق على الرّاقع ، ولا ينبغي

أن يلتفت - بالنظر إلى هذه المصالح العامة الأساسية - إلى غضب شخص أو حزب ، أو كراهية إدارة إقليمية أو ولاية ، أو أن تتأثر نتائج الانتخابات ، لأن البلاد أعلى وأعز ، والمبادئ أقدم وأثر من المنافع المؤقتة والمصالح المحدودة ، وليست ذلك للمتمسك بالمبادئ فحسب ، إنهم مقتضيات السياسة البصيرة الواقعية العميقة الغُور ، ولا أرى داعياً إلى بسط وشرح أكثر للموضوع ، ففيكم من توفد الذكاء وإدراك المغزى ، وصلاحية التوصل من الإشارات إلى المواضيع المقصورة ، ما يقنعني ويطمئنني .

أما الأمر الثالث الذي يحتاج كذلك إلى عناية بالغة ، فهو الفوضى الإدارية والخلقية (Corruption) التي بلغت حدّاً لا أجد له مثيلاً في تاريخ هذه البلاد سابقاً ، فلا تنظروا في هذا الصدد إلى التقارير الرسمية والتنظيمات الظاهرة وفخفخة الشؤون الإدارية وتقدمها المادي ، بل اسألوا عامة الأهالي ، وسكان الطبقة المتوسطة ، والناس الذين يترددون إلى المحاكم والإدارات والمكاتب ، ويسافرون بالقطارات والطائرات والحافلات (Buses) ، ويذهبون إلى مراكز البوليس ، وإدارة الهاتف والمستشفيات ، ويحتكون بأنواع المعاملات من المبيعات والمقاولات ، ومختلف شعب الحياة ، فلا عمل إلا بالرشا ، وإذا أدت الرشوة فكل عمل ممكن ، يمكن به تخليص المجرمين وصيد الأبرياء ، وإنفاذ حكم جائر ، وإشعال النار الطائفية إلى تسريب أسرار الدولة والجاسوسية ، والأدوية ليست خالصة ، والأغذية ليست صالحة ، والإسعاف الطبي صعب المنال ، والتسهيلات الطبية للمرضى تذهب سُدى ، وقد بلغت القساوة أقصى غايتها ، وتحمل الحكومة خسائر يومية باهظة تبلغ مئات الملايين في مصلحة القطارات والطائرات للرشا الفاشية .

ويرجع كل ذلك في أصله إلى الحُب المفرط للمال والنهامة والجشع للمادة ، وعدم الخشية من الله ، وفقدان المواساة والرحمة على الضعيف ، وعاطفة الوفاء للبلاد ، وإيثار مصلحتها على المصالح الفردية ، ولأجل كل ذلك يسرع إلى هذه البلاد - رغم رقيها وتقدمها في الصناعة والسياسة ، والعلاقة الدولية ونشر التعليم ومحو الأمية ونسبة التعليم المتزايدة - رغم كل

ذلك يسرع إليها الزوال وتقترب إلى القضاء ، فقد مل الناس الحياة ، وسئموا العيش ، ومما يدعو إلى الخجل والحياء والشعور بالفشل والإخفاق ، أنهم يذكرون عهد العبودية للإنكليز ويتمنونه ، حين كانت الإدارة محكمة أمينة ، وكانت مواقيت القطارات مضبوطة ، والمستشفيات مأوى المرضى ، يجدون فيها الراحة والطمأنينة والعلاج ، وكان الطلاب ينجحون في الاختبارات بجدهم واجتهادهم ، وكانت المناصب والوظائف تولي أهلها من ذوي الكفاءة والاستعداد ، وأصبحت هذه الأمور كلها الآن حديث كان .

هذه هي النقاط الثلاثة التي تستحق العناية الفورية ، وعلى أساسها يمكن أن تقوم حكومة قوية طويلة ، ولا أريد أن أكتمك أن في ذلك دخلاً كبيراً لطريقة الانتخاب الحالية ، وإرضاء الناخبين على حساب كل شيء ، والخضوع لمتطلبات الدوائر الانتخابية ، وتوفير التسهيلات الزائدة لأعضاء البرلمان ومجلس الأمة ، بحيث يرون لأنفسهم الحق أن ينفذوا ما يشاؤون من مشروع وغير مشروع ، والعضوية في البرلمان طير ذهبي أو الطير الأسطوري الذي يرد ذكره كثيراً في الشعر الفارسي والأردني وأمثالهما ، وهو « هما » إذا جلس فوق هامة إنسان أو طار عليهما جاءه الملك والسلطان .

وأقول - أخيراً - كرجل له دينه وعقيدته ، وكطالب لتاريخ العالم السياسي القديم والحديث ، ومؤلف في موضع التاريخ ، أنه قد أثبت التاريخ والتجارب الماضية ، أن أكبر سياسة وأعظم دبلوماسية هو « الإخلاص » ، وهو الذي ينتصر أخيراً ، ويكتب الفتح لصاحبه ، والعاقلة الكيس من يجعل أعداءه أصدقاءه ، وأصدقاءه أحبته المفدين له ، هذا هو الإخلاص الذي ظهر دائماً في حنان الأمهات ، ورحمة الأنبياء ورأفتهم ، وشفقة المربين المخلصين ، وفي علو همة القادة الذين يحررون البلدان ويؤثرون الأبعاد على الأقارب ، وصلاح البلاد وازدهارها ، وعزها وتقدمها على عزهم ومجدهم ، ومصالح أنفسهم وأسرتهم ، ولا يزال هذا الإخلاص يحمل من الطاقة ما يستطيع به الإنسان أن يحمي هذه البلاد الواسعة العظيمة التي تضم بين

جنبيها مختلف الشعوب والديانات ، ونحن نؤمل ذلك ونرجوه ، والحاجة شديدة إليه .
وأخيراً أعذر لطول الحديث ، فقد أطاله الأمل في حسن الاستماع وتوَجَّع القلب المكسوم .

المخلص

أبو الحسن علي

إلى السيد راجيف غاندي
(رئيس وزراء الهند)

رسالة مُهمّة

وَجّهَ العلامة الندوي هذه الرسالة إلى السيد راجيف غاندي لَمَّا تَمَّتْ بينه وبين السيد غاندي من لقاءات في صدد قضية قوانين الأحوال الشخصية ، وما أبدى هو في أمرها من اهتمام وملاحظة ، فكتب إليه هذه الرسالة مسلم يعترف بالحق ويقوم بواجب الشكر والتقدير برسالة شكر واعتراف ، أشار فيها عليه كمواطن يحبُّ وطنه ، وكإنسان واقعي مخلص ، وأحد أصحاب الدعوة ورجال العلم ، بتوجيهات مخلصة ، وآراء قيمة تتصل بقيادة هذه البلاد وإدارتها ، وتقوم عليها سلامة هذه البلاد وأمانها وبقاؤها ، وإليك نصُّ هذه الرسالة .

سيادة راجيف غاندي

تحيات وتمنيات طيبة

إنني أريد عن طريق هذه الرسالة مع إبداء عواطف الشكر والتقدير للموافقة على المذكرة المتعلقة بالمرأة المسلمة المطلقة^(١) ، أن أُصرِّح لكم - استفادة من الصلة والثقة التي تحققت بسبب اللقاءات والاجتماعات بكم - بدراساتي واعتقادي بأنَّ طريق قيادة هذه البلاد والحفاظ عليها - في هذه الآونة بالذات - تقتصر على الواقعية ، والاعتراف بالحقائق والحوادث ، والتمسك بالأصول والمبادئ والجرأة الخلقية وسعة النظر ورحابة الصدر ، وهي تلك الطريق التي مهَّدها لنا قادة تحرير هذه البلاد ، والرعييل الأول منهم فيها ، وأمكن لهم تحرير البلاد عن طريقها .

إنَّ أصبح طريق لهذه البلاد التي قُدِّر لها من بدايتها وجود مختلف الديانات والحضارات والمدنيات ، واللغات والثقافات فيها ، هو طريق الديمقراطية ، والعلمانية الصادقة ، واحترام كل فرد من سكانها ، وإعطاؤه الفرصة الكاملة للمشاركة في رُقْي البلاد وعمارتها وازدهارها بكل حماس وتفانٍ ونشاط ، وإنَّ العصبية والعنف ، وضيق النظر والعاطفية ، وإيقاظ الأحداث النائمة من التاريخ ، يعني إيقاظ الأسد النائم الذي لا يرحم أي فرد بعد قيامه .

إنَّ أكبر خطر على هذه البلاد هو نزعة العنف التي ظهرت في الأعوام الأخيرة ، لاسيما في الأشهر القريبة ، والتي كان القائد غاندي يعارضها معارضةً شديدةً ، ويحسُّ بالخطر البالغ منها ، لأنَّ النار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكل في الخارج ، فإنَّ العصبية والبغضاء الطائفية سوف تتجاوز الطوائف والفرق إلى الأشخاص والطبقات والأسر وعامة الأفراد ، ثم لا عاصم للبلاد منها إلا الله .

(١) كانت هناك قضية امرأة مسلمة مطلقة ، اشتهرت بـ « قضية شاه بانو » وكان للعلامة الندوي دورٌ كبير في معالجتها .

إنني لا أريد أن آخذ من وقتكم كثيراً ، إنه ملك للشعب والبلاد كلها ، ولكنني أريد أن أصارحكم بدون كلفة وفي إخلاص : إنني أراكم الآن حاجة هذه البلاد ، ولذلك فإني أقول لكم في صراحة : بأن ميزتكم الأساسية التي تستطيعون أن تنتصروا بها في هذا التسابق للقيادة والمؤامرات السياسية على جميع القادة وتملكون بها قلوب السكّان ، هو إخلاصكم ، وصدقكم ، وجرأتكم الخلقية ، وبساطتكم وواقعيّتكم التي أصبحت نادرة غريبة في القادة السياسيين المحترفين والمتزعمين .

إن الكتب السماوية والتاريخ البشري لتدل على أن العاقبة والنجاح للصدق ؛ وإنّ الخطب الرنانة ، والذكاء الخارق ، والمؤامرات الدقيقة مرّوها إلى البوار والخسران المبين ، فمن رأيي المخلص لكم أن تستمروا في السير على هذا الدرب .

إنّ هذه البلاد - الآن - تواجه أزمةً وخطراً يندر نظيره في التاريخ الماضي ، وإنّ أكبر خطر للبلاد في هذه الآونة إنما هو الظلم والعنف والعصبيّة الطائفية وعدم المساواة ، والفوضى الخلقية والإدارية ، وحركة إحياء الطائفية البغيضة ، فلا بد من مجابهتها والاستماتة في سبيل القضاء عليها ، وإن الله - تعالى - قد وهبكم الثقة العظيمة وحبّ الناس لكم في هذه البلاد الواسعة ، وخوّلكم فرصةً مواتيةً قريبةً لرئاسة الوزراء ، ورئاسة حزب المؤتمر الوطني الحاكم ، فأرجو رجاءً مُخلصاً أن تنتهزوا هذه الفرصة الثمينة ، وتنتفعوا بهذه الموهبة ، وتستغلّوا لأنفسكم مكاناً مغبوطاً في التاريخ ، وحبّاً غير محدود في القلوب والنفوس ، أعانكم الله ووفقكم .

أبو الحسن علي الندوي

إلى نرسمهاراؤ (رئيس وزراء الهند)

نصائح مخلصه

تولّى السيد « نرسمهاراؤ » منصب رئيس وزراء الهند في ١٧/ يونيو سنة ١٩٩١ م ، ومن عادة العلامة الندوي أن ينتهز فرصة تولّي أي زعيم يتولّى رئاسة الوزراء ، فيقدّم إليه تصوّراته ونصائحه المخلصه ، ومخاوفه على مستقبل البلاد ، كما يُقدّم صورة للبلاد في ذلك العصر الذي كتب فيه هذه الرسالة ، وإليك نصّ هذه الرسالة المفصّلة التي كتبها العلامة إلى رئيس الوزراء الهندي في أول يوليو سنة ١٩٩١ م :

سيادة رئيس وزراء الهند المستر راؤ :

بعد التحية اللائقة ، أقدم إليكم التهاني القلبية على تولي هذا المنصب الجليل ، وإتاحة هذه الفرصة الغالية لخدمة البلاد ، وتأمين سلامتها وتقدمها ، نظراً إلى الإمكانيات والتطلعات الواسعة لخدمة الإنسانية ، وصيانة البلاد التي تناط بكم من قبل البلاد وشعبها ، ولكن اسمحوا لي أن أقول إنكم تتولون هذه المسؤولية الكبرى في الظروف التي نزلت فيها البلاد إلى الحضيض ، وهي تواجه أوضاعاً لا تواجه إلا في قرون ، وإني أقول لكم (بصفتي رجلاً دينياً) إنكم تحتاجون إلى نصرة الله وإرشاده ، وهو خالق الإنسان ، وحبه للإنسان الذي خلقه أكثر من حب الأم الحنون لأولادها ، وهو القادر المطلق ، وذو القوة المتين ، ثم تحتاجون إلى الإخلاص وحب الوطن الصادق والصراحة والقدرة على اتخاذ القرار ، والتجربة الواسعة ، وتضامن وتعاون المحبين الآخرين للوطن .

وإني أتجرأ في هذه المناسبة الخطيرة ، كمؤلف درس فلسفة الأخلاق ، والتاريخ والسياسة دراسة عميقة ، وكمحب للوطن ، لا يضمّر في قلبه في تقديم هذه الرسالة ، وفي إعطاء هذا النصح أي غرض سياسي ، أو اقتصادي ، أو اجتماعي ، أو شخصي ، بإقامة اتصالات مع هذه الشخصية الكبيرة في البلاد ، وأقدم إليكم بعض النصائح ، وأعرض عليكم بعض الحقائق بإخلاص ، بدون أي غرض ، وأرجو أنكم ستوفرون بعض الوقت من أوقاتكم الثمينة لإلقاء نظرة عالية على هذه الملاحظات المتواضعة ، وقد أثرت أن أعبر عن تصوّراتي ومرثياتي باللغة الأردية ، لأنني علمت أنكم تحملون ذوقاً عالياً لأدب اللغة الأردية ، وتقرؤون وتفهمون هذه اللغة بسهولة تامة ، كما أجد نفسي حراً في التعبير في هذه اللغة بطلاقة وبدون تكلف .

إني لا أضيع وقتكم في هذه الفرصة الغالية بذكر قضايا المسلمين ، أكبر أقلّيات الهند ، والمسائل الفرعية الأخرى ، وإنما أركّز على ما يتعلّق في صالح الهند ، بصفة عامة وبأسلوب مبدي .

إنَّ الأمر الأول وهو المنهج الوحيد الذي يضمن كرامة البلاد وبقائها ، وتقدّمها وسلامتها ، ويمكنها من أن تلعب دورها المتميّز اللائق بها في العالم المعاصر والوضع العالمي الخطير المعقّد ، هو المنهج الذي وضعه قادة البلاد العقلاء الأفذاذ ، الذين قادوا حركة البلاد بإخلاص ، أمثال غاندي ، وجواهر لال نهرو ، ومولانا أبو الكلام آزاد .

إنّه منهج العلمانية الصادقة ، الديمقراطية السليمة ، والوحدة بين الهندوس والمسلمين ، مهما طال هذا الطريق وأشكل ، فهو الطريق ، وكل طريق آخر يتخذ - وإن تحقق به النجاح المؤقت بصورة طارئة - طريق يؤدي إلى دمار البلاد ، ويضيع التضحيات الجسيمة التي بذلها هؤلاء القادة في سبيل حرية البلاد ، ويعرّض البلاد للمشاكل والمسائل المستعصية ، التي لا نهاية لها .

إن الشيء الأول الذي أريد أن أصرّحه كدارس للديانات وتاريخ الإنسانية والفلسفة والأخلاق ، وأخشى أن أحداً غيري ينظر في المنظور السياسي سوف لا يقوله ، في هذه المناسبة ، وهو أن البلاد تواجه خطرين شديدين ، ويستحق هذان الخطران عنايتكم الأولى .

أولهما : عنصر الظلم والعنف ، والتكران لقيمة حياة الإنسان ، وماله ، وكرامته ، وشرفه مهما كانت طبقته ، والذي يتجلى خلال الاضطرابات ، فتدمر الأسر والأحياء بكاملها على أساس الفوارق الطبقية ، والاعتداء على حياة الإنسان لنفع مالي زهيد ، وارتكاب جرائم ، وكثرة المظالم ، والأمر الآخر والأكثر إحزاناً وعاراً ، إحراق العرائس لعدم الاستجابة للطلبات الباهظة في الجهاز ، أو قتلهن بالسّم والتخلّص منهن .

إنَّ الذين يؤمنون بأي دين لا يصعب عليهم أن يفهموا أنّ الذي خلق هذا الكون ، والذي بيده الأمر ، والذي يحبّ من خلقه أكثر من حب الأم لأولادها ، لا يرضى بهذا العمل بأي حال من الأحوال ، ولن يحتمل هذا العمل مدة طويلة ، وإذا بقيت هذه الجرائم فإن البلاد لن تزدهر ، ولن يبقى هذا

المجتمع ، مهما بُذلت محاولات لبقائه ، وصُرفت قدرات لتقدّم البلاد . ولكن الذين لا يؤمنون بالأديان يعرفون هذه الحقيقة التاريخية ، أن ظلماً وبربرية أقل درجة من هذا الظلم والبربرية كانت سبباً لاندثار إمبراطوريات وحضارات كبرى ، كانت ذات قوة وبطش شديد في عصر من العصور ، ولا تزال آثارها باقية في كتب التاريخ والأدب ، وهو المطالبة من طبقة واحدة بأن تغير نفسها ، وتتنازل عن خصائصها الملية ، والثقافية والدينية ؛ وتوجيه اللوم إليها بصورة دائمة ، وإحياء تاريخ نائم ، بل ميّت يرجع إلى آلاف السنين .

فإن التغيرات التي حدثت قبل قرون ، سواء أكانت حسنة أم كانت سيئة ، واحتملها المواطنون الغياري ، والمخلصون المتسامحون قروناً طويلة ، إذا أُريد إرجاعها إلى العهد السابق ، أو بُذلت محاولة لتصحيحها ، يعرض البلاد لمسائل ومشاكل جديدة ، البلاد في غنى عن مواجهتها ، ولا يسعها ذلك ، وبهذا الطريق تصرف قدرات البلاد وذكاء الطبقة المثقفة ، وإمكانات الحكومة والإدارة في غير محلّها ، وتحتاج البلاد إلى أن توجّه هذه القدرات إلى الأعمال الإعمارية التي تؤمن سلامتها وبقائها ، فيجب أن يملأ هذا التصدّع ، الذي يمكن أن يملأ الآن بجهد بسيط وبمواد قليلة ، قبل أن يتّسع ويصبح تصدّعاً لا تملؤه الأميال .

ويجب أن لا تحول دون هذه المصلحة القومية الأساسية والعامة ، مصلحة الانتخابات ، أو سخط أي شخص أو جماعة أو إدارة إقليمية ، بل يجب أن يكون ذلك فوق جميع المصالح ، وفوق جميع الاعتبارات والمنافع المحدودة المؤقتة ، وليس ذلك اقتضاء الأصول والمبادئ ، وإنما هو اقتضاء للسياسة العميقة واسعة المدى ، والواقعية ؛ وإني أكتفي بهذا القدر ثقة ببصيرتكم الفائقة ، وفراستكم المتميزة ، وصلاحيّتكم التي وهبكم الله إياها لفهم الأمور ، ومعرفة الدقائق بالتلميحات ، فلا حاجة إلى التصريح والتفصيل .

الشيء الثالث الذي يحتاج إلى عناية عاجلة واهتمام بالغ ، ويبعث على القلق ، هو الفساد الإداري والخُلقي ، الذي تفاقم إلى حدّ كان سبباً لانهايار دول كبيرة ، فأصبحت حديث الماضي ، وأثراً بعد عين ، فيجب الانتباه إلى

هذا الأمر بصورة عاجلة ، وتحتاج هذه القضية إلى حركة ساقطة ، وهي أهم من جميع المصالح السياسية ، ومن الحملة الانتخابية ، ويجب أن تكون هذه الحركة غامرة لكل قرية وحيّ من الأحياء ، وسنّ قوانين صارمة ، واتّخاذ إجراءات عنيفة ، وفرض عقوبات شديدة ، تكون فيها عبرة للآخرين ، واستخدام وسائل الإعلام ، وتنشيط الجهاز الإداري ، وحمله على اتّخاذ كل تدبير لتصحيح الأوضاع .

والأمر الثاني في هذا الصدد ، هو أنّ أيّ مهادنة أو تهاون إزاء حركة الإحياء الهندوسية ، وشوهند وبريشد ، وشيوسينا ، و (آر ايس ايس) ، والعناصر الطائفية والإرهابية ، ودعاة العنف ، إن كانت تخدم بعض المصالح العاجلة ، أو تفيد في تجنّب بعض المشاكل ، ترادف إغفال الألغام الناسفة والمواد القابلة للانفجار تحت الأرض ، فإنها ستفجر يوماً ، وتفجر البلاد كلّها ، أو تغرقها ، وقد كان غاندي يدرك ذلك إدراكاً تاماً ، ويعرف أن النزاعات الطائفية والإرهاب والعُنف والعدوان ، إذا أطلق لها العنان ، فإنها ستؤدي إلى تقسيم الشعب الهندي إلى عنصرين متحاربين ، المسلمين والهندوس ، ثم تتفاقم هذه الخلافات الدينية الفرعية ، وتتعدّى إلى صراع بين الطبقات ، والأسر ، والعناصر ، وتتولّد منها العصبية اللغوية والثقافية والإقليمية ، ولا ينتهي الأمر بذلك ، بل تشتعل هذه النار (التي من طبيعتها أنها إن لم تجد ما تحرقه تأكل نفسها) وتحرق البلاد بكاملها .

إنني لا أجد مثلاً لهذه الانتفاضة العدوانية ، التي أشاهدها اليوم في تاريخ الهند الطويل . إن خطورة هذا الوضع لا يمكن أن تدرك بالتقارير الرسمية ، والإجراءات الإدارية ، وتقدم البلاد في الصناعة والمدنية ، وإنما يدرك بإصلاح حياة عامة الناس ، والحياة الاجتماعية ، ومعالجة ما يتعرّض له الناس من متاعب ومضايقات خلال اتّصالهم بالدوائر الرسمية ، كالمحاكم ، والمكاتب الإدارية ، وسكّة الحديد ، والخطوط الجوية ، ومخافر البوليس ، ومكاتب التلفون ، والمستشفيات الرسمية ، ومرافق الحياة الأخرى ، التي لها صلة بالحكومة ، فيعرفون أنه لا يمكن أن تقدم خطوة واحدة بدون الرشوة ،

ولا يتحقق أي عمل بدون الفلوس ، أما بالفلوس فيصبح المستحيل أمراً يسيراً . يمكن بها إطلاق سراح المجرمين ، ويمكن بها إدانة الأبرياء ، وإحالتهم إلى السجون ، ويمكن بها الحصول على أي حكم أو قرار ضد الحق الشرعي ، وإحداث الاضطرابات الطائفية ، وحتى بيع أسرار الوطن ، لا توجد أدوية نقيّة ولا أغذية صافية ، وأصبحت الرعاية الطبية غالية ، والأدوية غير مُيسّرة ، والتسهيلات غير كافية للمرضى ، وقد بلغت قسوة القلب غايتها ، وأصبح الحجز في سكة الحديد ، والخطوط الجوية عسيراً ، لا يتيسر إلا بالرشوة ، وتخسر الحكومة كلّ يوم ملايين من الرُوبيّات من أجل الحرص الزائد على كسب المال .

وقد زالت خشية الله من القلوب ، والعاطفة الإنسانية ، والولاء للوطن ، وإيثار مصلحته ، والاحتراس من كل عمل يسيء إليه ، وبهذا التدهور الخلقي تتجه البلاد بسرعة فائقة إلى التردّي والانحطاط ، رغم تقدّمها البادي في الصناعة والسياسة والعلاقات الخارجية ، وانتشار التعليم ، وارتفاع نسبة المتعلّمين ، وقد عمّ التذمّر في الشعب ، ويشيع القلق النفسي فيه ، ويزداد التبرّم من الحياة ، ومن المُخزي أنّ الناس يتذكّرون عهد العبودية ، عهد حكم الإنجليز ، ويتمنّون عودة ذلك العهد ، الذي كان فيه النظام الإداري يقظاً ونشيطاً ، وكانت القطارات والطائرات تسير في مواعيدها ، وكانت المستشفيات تخدم الناس ، وتخفّف من آلام المرضى ، وتريح أنفسهم ، وكان الطلبة ينجحون في الامتحان بجهد أنفسهم وكفاءتهم الذاتية ، وكانت الوظائف العالية لا ينالها إلا الأكفاء لها ، وقد أصبحت هذه الأمور مثل العنقاء في هذا العصر .

إنّ هذه الأمور الثلاثة تحتاج إلى معالجة عاجلة ، واهتمام بالغ ، وعلى معالجتها وتصحيح مسارها يمكن أن يقوم نظام مستديم للحكم ، وسامحني أن أضيف إلى ذلك ، أن هذه المساوئ ترجع إلى حدّ كبير إلى أسلوب الانتخابات ، الذي يسعى فيه المرشّحون إلى إرضاء الناخبين بأي حال من الأحوال ، والاستجابة لرغباتهم ومطالبهم ، مهما كانت نتائجها وملاساتها ، ومنح النُواب في البرلمان وأعضاء المجالس التشريعية في الولاية تسهيلات

وامتيازات، تؤهلهم للتدخل في الشؤون العامة، والعرقلة في نظام العدل وتنفيذ القانون، وقد أصبحت عضوية البرلمان ككوبة سعد، يغير حظ الإنسان ونصيبه.

وفي الختام أريد أن أضيف كرجل مُتَّبِعٍ للتعاليم الدينية، وكدارس للتاريخ البشري، والسياسة العالمية والقديمة والحديثة، وكمؤلف باحث؛ إنَّ التجربة أثبتت أنَّ الإخلاص هو جوهر السياسة الفائزة، وأنَّ صاحب الإخلاص هو الذي ينتصر في آخر الأمر ويفوز، وهو السلاح الذي يسحر القلوب، ويقهر الأعداء ويحولهم أصدقاء، ويجعل الأصدقاء أخلاء، ويحقق النصر النهائي؛ وإنَّ هذا الإخلاص يتجلَّى في حنان الأمِّ، ومحبة الأنبياء والصالحين ورأفتهم، ومحرري البلدان، والذين يؤثرون غيرهم على أقاربهم في خدمة الوطن، ويفضّلون الوطن والشعب على أقاربهم وأسهرهم. . . ويمنحهم الرفعة والسمو الفكري، ولا يُنقِذُ هذا البلد المترامي الأطراف، المتعدد الأجناس والمذاهب، في هذا العهد المتأزّم، إلّا هذا الإخلاص وحسن النية، وإنّي لا أستغرب ذلك فيكم، بل أنيط بكم آمالي وتطلّعاتي، وذلك ما أرجوه منكم، وذلك هو الذي تمسُّ الحاجة إليه.

إنَّ الخلق الإنساني، والوطنية الصادقة تقوم على المجهود للرابطة العامة، الذي يوجّه فيه النداء إلى التسامح بين مختلف الطوائف، واحترام الإنسانية والتعايش السلمي؛ ويجب أن تعمّ هذه الحركة، وينتشر هذا المجهود بالإضافة إلى المدن الكبرى في المناطق الريفية والقرى، بل في كلّ بيت، وفي كلّ منطقة أهلة بالسكان، وأن تجري هذه الحركة بكل حماس، وتُسَخَّر لها جميع الطاقات والوسائل.

لقد بذر الحكّام الأجانب بذور الكراهية الطائفية، وبثوا السموم، ونشروا سوء التفاهم، والشكوك والشبهات، بتخطيط دقيق، كما اعترف مؤرخ إنجليزي بقوله: (إنَّ هذا الكتاب التاريخي يشتمل على مواد، لا تلتقي بعدها قلوب المسلمين والهنادك، ولا تتألف أبداً)^(١)، وقد أضاف إلى هذه المواد

(١) يشير إلى كتاب في تاريخ الهند بالإنجليزية، ظهر في ذلك الزمان.

ووسّعها المؤرخون الذين كانوا يعانون من ضيق الفكر ، ولا يبالون بالعواطف ، والذين وضعوا المناهج الدراسية ، وألفوا الكتب فيها ، وواصلوا السير في هذا الاتجاه ، وكانت النتيجة أنّ أذهان جيلنا الجديد ، والطبقة المثقفة تحمل تصوّرات خاطئة معادية ، بالنسبة لحكام الهند السابقين ، بل بالنسبة لأكبر أقلية في البلاد ، وهم المسلمون .

وقد سرى ذلك السم إلى الحياة والخلق كلياً ، فالحاجة الماسّة في مثل هذه الأوضاع لأنّ يُعاد النظر في المنهج التعليمي ، ويجري إصلاحه عاجلاً ، وأن تُنقى الكتب الدراسية والموضوعات التاريخية من تلك المواد السّامة ، وبدون ذلك لا يتمّ إعداد جيل جديد يحمل ذهنًا صافيًا تحتاج إليه هذه البلاد .

إن الصحافة الهندية ، حتى وسائل الإعلام اختارت موقفاً خالياً من الشعور بالمسؤولية ، أثناء التعليق على الأحداث أو تغطيتها أو توزيع الأخبار ، فيتأثّر ذهن رجل عادي بل ينفعل بها ، فتثور عاطفة الثأر والاحتقار والكراهية ، بدلاً من أن تثور عواطف التآلف والثقة بين الناس ؛ إنها تجعل من الحبة قبة ، وتقدّم صورة جانبية متحيّزة للحدث ، وما لم يتمّ السيطرة على الصحافة ووسائل الإعلام ، وما لم تؤدّ هذه الوسائل وظيفتها تأدية صحيحة ، لا يمكن إزالة التناحر أو التباعد بين العناصر المختلفة لشعب البلاد ، ولا يمكن مكافحة لسوء الظن والشكوك والشبهات السائدة فيها .

إنّ الإنجليز الذين كانوا يحكمون هذه البلاد من وراء سبعة أبحر ، وكانوا لا يستحقّون ذلك ، لم يكن أمامهم طريق إلا بثّ الخوف والرعب في النفوس لإقرار حكمهم ، وأنشؤوا وكالة لهم في صورة الشرطة ، التي تساعدهم على إلقاء هذا الخوف والرعب وهيبة الحكومة ، ليبقى الشعب في حالة حذر واحتراس ، ويتمنّى أن يعيش بعافية وكرامة ، إنهم أعرضوا عن تربية العاملين في هذه القوّة تربية خلقية ، بل إنهم علموها على العكس واعتبروا خوف كلّ إنسان له كرامة وشرف من هذه القوّة علامة لنجاح الشرطة .

والآن قد انتقل حكم البلاد إلى أهلها ، ويتولّى المواطنون نظام الحكم والإدارة ، فعليهم أن يوجّهوا انتباههم الأول إلى تربية الشرطة تربية خلقية ،

وأن يُحدثوا فيها عاطفة الخدمة والمعاونة ، والعطف والترحم ، وأن يحولوا الشرطة إلى قوة وطنية تعطف على الإنسان ، وتخدم المواطنين بطريق يتأثر به تصوّر عامة الناس عنها ، وتعود الثقة فيها ، ويعتبرها كلّ فرد من أفراد الشعب مسؤولة عن سلامته ، ويجد فيها روح التعاون والمساعدة عندما يحتاج إليها ؛ فلا يطغى فرد على فرد ، ولا يتعدّى أحد على أحد ، ولا طائفة على طائفة ، بل تصبح هذه القوة سداً منيعاً أمام كلّ نوع من الاعتداء أو الطغيان ، بغضّ النظر عن الطائفة التي ينتهي إليها المعتدي .

وكذلك يجب الاحتراس والتحفظ في كل عمل يعتبره المسلمون تدخلاً في الدين ، أو يرادف سحب ما منحه الدستور الهندي من حريات أو ترخيصات ، سواء كان ذلك لسنّ قانون ، أو تدخّل في الأحوال الشخصية للمسلمين ، وقد ثارت في عهد الرّاحل راجيف غاندي قضية نفقة المرأة المسلمة المطلقة ، وأصدرت المحكمة العليا حكماً عارضه المسلمون ، وقاموا باحتجاج في عموم الهند ، لا يوجد له نظير في تاريخ الهند المستقلة (بالنسبة للمسلمين) ، واتّخذ راجيف غاندي موقفاً واقعياً ، وتصرف بجرأة خلّقية ، واتّخذ البرلمان بمجهوده الشخصي قانوناً حسب الشريعة الإسلامية ، استجابة لمطالب المسلمين ورغباتهم ، وألغى به حكم المحكمة العليا .

وإني أرجو بكلّ إخلاص وحسن نيّة وثقة ، بأن لا تُقحم الحكومة في المستقبل أيضاً نفسها في أي خطوة تحت ضغط أي فريق متطرّف ، يُحدث ردّاً فعل في المسلمين الذين يحملون حساسية زائدة وغيره شديدة ، بالنسبة لدينهم وقانونهم الشرعي في الهند .

وأخيراً تفضّلوا بقبول أخلص التحيّات والتقدير والإكرام والدعوات الطيّبة ، والتمنّيات القلبية المخلصه .

المخلص

أبو الحسن علي الحسيني الندوي

بمحضر السيد ياسر عرفات
(زعيم حركة فتح لتحرير فلسطين)

هاتي صلاح الدين ثانيةً فينا

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة بمحضر السيد
ياسر عرفات في المجلس التأسيسي لرابطة العالم
الإسلامي بمكة المكرمة ، نيابةً عن أعضاء
المجلس ، أبدى فيها العلامة مشاعره ومشاعر
المسلمين إزاء قضية فلسطين ، وخاصة مسلمي
الهند ، الذين يتابعون دائماً القضايا الإسلامية حيث
كانت ، وأينما كانت ، ويستعدّون لأي تضحية في
ذلك السبيل ، واتباع المنهج الإسلامي لحلّها .
يُقدّم هنا فيما يلي نص الكلمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين ؛

أما بعد! فلي الشرف العظيم أن أتكلّم باسم هذا المجلس الموقر في مثل هذا الموقف الدقيق الحساس باسم المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها ، وباسم مئات الملايين في شبه القارة الهندية ، وهذا إن دلّ على شيء ، فإنّما يدلّ على عالمية القضية الفلسطينية ، وإنسانيتها وإسلاميتها ، إنني في هذه الساعة المتأخرة من الليل لا أريد أن أطيل عليكم ، وأن أشقّ عليكم ، إنّما أقصر على دعاء في هذه الساعة المباركة الميمونة ، وفي رحاب البيت العتيق ، وبمحضر من مناضل جليل ، مناضل في سبيل القدس ، في سبيل المسجد الأقصى ، القبلة الأولى ، وثالث الحرمين ، أقصر على دعاء واحد ، وأرجو الله أن يتقبل هذا الدعاء في هذه الساعة المباركة في ليلة الجمعة المباركة ، وهو أن يقيض الله لفلسطين ، بل للمسلمين جميعاً ، بل للإسلام ، صلاح الدين الأيوبي ثانياً ، وإن حكمة الله تبارك وتعالى اقتضت أن تختار من بين الأكراد كردياً ، يتوارى نسبه بعد ثلاث أو أربع وسائط في ظلمات الجاهلية ، لأنه قد أسلم آباؤه قريباً ، وأنه لم يكن عريقاً في الإسلام ، فكيف لا تقتضي حكمة الله تبارك وتعالى ، ورحمته أن يختار عربياً صميماً ومسلماً سليماً ، مجاهداً في سبيل الله ، ينحدر من أصول عربية إسلامية ، عريقة في القدم ، كيف لا تقتضي رحمة الله أن يختار من بين العرب ومن بين المسلمين صلاح الدين الأيوبي ثانياً .

وإنني أخطب الأمة العربية بلسان خير الدين الزركلي ، الشاعر العربي ، أنّ الحلّ الوحيد لقضية فلسطين ، أن يبرز صلاح الدين على مسرح القضية الفلسطينية ، وعلى مسرح الجهاد الإسلامي ، فيقول :

هاتي صلاح الدين ثانية فينا وجددي حطين أو شبه حطينا

هاتي صلاح الدين ثانية فينا ، وجددي أيتها الأمة العربية المسلمة حطين - أو شبه حطينا - ، ماذا كان سر نجاح صلاح الدين الأيوبي ؟ إنما السر أنه كان مسلماً ، مؤمناً محمدياً ، لا يعرف غير لغة القرآن ، ولا يعرف غير لغة الإيمان ، ولا يعرف غير لغة الحنان .

والمسلمون ما زالوا ولا يزالون - اكتبوا عني بقلم عريض اكتبوا عني وسجلوه - إن المسلمين إلى هذا الوقت ، وإن عبث بهم يد الزمان ، ويد التربية الغربية ، ويد المادية الرعناء ، لا يفهمون غير لغة القرآن ، صدقوني أيها الإخوان ، أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، مهما تعددت لغاتهم ، ومهما فاق ذكاؤهم ، ومهما فاقت ألمعيّتهم وعبقريّتهم ، إلى الآن لا يفهمون إلا لغة محمد بن عبد الله ﷺ ، الذي آمنوا به كنيي خالد ، وكرافع لراية الجهاد الأول المقدّس ، إنهم لا يفهمون غير لغة القرآن ، مهما أقمحت عليهم اللغات ، وهما فُرضت عليهم الثقافات ، ومهما تنوّعت فيهم ألوان الحضارات ، إنهم لا يفهمون إلى أن تقوم القيامة ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لا يفهمون - والله لا يفهمون - إلا لغة القرآن ، خاطبوا المسلمين بلغة القرآن ، لا بلغة السياسة ، خاطبوا المسلمين بالمصطلحات القرآنية ، خاطبوا المسلمين وأثيروا فيهم الحنان والإيمان بكلمة الجهاد ، بكلمة الشهادة في سبيل الله ، بكلمة الحنين إلى الشهادة ، إنهم لا يزالون يُحسنون فهم هذا القرآن .

ما كان السرّ لسيطرة صلاح الدين الأيوبي على القلوب والنفوس والأرواح ؟ ! إنما كان السر كامناً في أنه فهم هذا السر ، فهم هذه النقطة ، فهم هذه الحقيقة ، إن المسلمين لا يندفعون إلا بدافع الجهاد ؛ ففتح العالم الإسلامي كلّ من أقصاه إلى أقصاه ؛ ويستغرب المؤرخون الأوروبيون كيف اتّحد العالم الإسلامي ، كيف استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يوحد العالم الإسلامي الممزّق المُتشتّت ، المنقسم على نفسه ، كيف استطاع أن يجمع هذا العالم المترامي ، الذي تعدّدت عناصره وتعدّدت ثقافته ، وتعدّدت مذاهبه الفقهية ، كيف استطاع أن يوحد هذا العالم الإسلامي ، في هذه الفترة الحالكة

العصية تحت راية محمد ﷺ ، ولم يرفع راية القومية العربية .
اسمحوا لي أن أقول بكل صراحة ، وأنا هندي الأصل ، أنا هندي الثقافة ، أنا رجل ولدت ونشأت في الهند ، ولكني أوّمن بمحمد ﷺ ، واؤّمن بالقرآن ، وهناك قلوب تُعدّ بالملايين تهفو إليكم وتصبو إليكم ، وتهون عليها نفوسهم ، وسجّلوا عني أن مذبحة كبيرة وقعت في الهند ، لأي شيء ؟ لأجل المجتمع الإسلامي الكبير ، الذي حضرَ عنايةً بقضية فلسطين واهتماماً بها ، ذلك في أحمد آباد ، وبحثنا هذه القضية على هذه الطاولة هنا في المجلس التأسيسي ، وحضر فيه الأستاذ أبو الأعلى المودودي ، وحضرت أنا كعضو في المجلس التأسيسي .

إنما وقعت هذه المجزرة ، ووقع هذا الاضطراب ، لأن المسلمين في أحمد آباد تجمّعوا - على بُعد الدار وحيلولة البحار وعدم معرفتهم للغة العرب - تجمّعوا هذا التجمع الكبير الخالد التاريخي ، ليدافعوا عن قضية فلسطين ، فإن وراءكم أيها الإخوان قلوباً مخلصّة ، لا يعرف مدى إخلاصها إلا الله تبارك وتعالى ، قلوباً مؤمنة ، قلوباً مخلصّة ، قلوباً صادقة ، لا تعرف لغة السياسة ، ولا تعرف اللياقة ، إنما تعرف الإيمان ، إنما تعرف الحنان ، إنما تعرف لغة القرآن ، فأنتم تملكون أكبر ثروة ، لا تملكها أمريكا ، والله لا تملكها روسيا ، تلك ثروة الإيمان ، تلك ثروة الإيمان الدافقة ، تلك ثروة الإيمان ، التي استطاعت أن تقهر العالم كله ، وأن تكون حضارة ، وتكون دولة من أكبر الدول الإمبراطورية ، وهي تستطيع - والحمد لله - في هذا الوقت .

أقول في رحاب البيت العتيق : إنّ هذه الثروة موجودة ، ولكنها تحتاج إلى إثارة ، تحتاج إلى تحريك ، تحريك صادق مؤمن ، وفيكم الأمل ، إنني أرجو الله أن يستخدمكم في سبيل هذه القضية ، وأن يجعل منكم صلاح الدين الأيوبي الآخر ، لا أقول الأخير ، الآخر وليس الأخير ، والإسلام كمطر لا يدرى أوّل خيره أم آخره .

وإنني أقول لكم أيها الأخ الكريم ، أيها الأخ المجاهد ! إنني لأتبرّك بتراب

نعالكم في ساحة الجهاد ، وأرجّحه على كثير من العبير ، وعلى كثير من العُطور ، إنني أقول لكم : اذكروا قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَكُمْ كَمَا تَأْلُمُونَهُمْ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] ، هذه ميزتكم ، إنّ اليهود لا يرجون ، أنا أعرف اليهود ، اليهود فقدوا كلّ شيء ، وقطعوا كل خيط كان يربطهم بالله تعالى ، وبالصحف السماوية ، أصبحوا شعباً مادياً بحتاً ، لا يؤمن إلا بسيطرته على العالم ، ليس أمامه غاية نبيلة ولا غير نبيلة ، إنما هو شعب عنصري ، لا يؤمن إلا بالعنصرية ، والله تبارك وتعالى لا ينظر إلى العنصرية ، إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أجسادكم ، ولا إلى وجوهكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فأنتم تملكون أكبر ثروة ، ولا تزالون تملكونها ، وترجون من الله ما لا يرجون ؛ استمدّوا هذه القوى ، أثيروا هذا الدفين الكامن ، هذا الكنز الخفي ، الذي لا يزال في صدور زملائكم .

هذه كلمة أخ لكم في الله ، أخ لكم في الدين ، أخ لكم في الإسلام ، لا يربطه بكم إلا الخيط الإيماني والرّباني والثّراني ، الذي انبثق من هذا البلد ، ولا يزال لامعاً ، ولا يزال بازغاً ، ولا يزال منيراً للقلوب والنفوس ، ويبدد الظلمات ، ظلمات الجاهلية ، والظلمات الأمريكية ، والظلمات السوفيتية ، إنّنا نحن المسلمون - والحمد لله - أغنى من كل الأمم ، وأقوى من كل الأمم ، وتاريخنا طاهر ، تاريخنا نزيه ، لم تتلوّث أيدينا ولا أجسادنا بدماء الأبرياء أبداً .

فكن على ثقة أيها الأخ الكريم ، أيها المجاهد ، أنّ وراءك جيشاً عرمرماً من المسلمين ، من القلوب المؤمنة ، من الأرواح السعيدة ، من الذين يستهينون بحياتهم ، ويستهينون بكرامتهم في سبيل الله ، جرّبوهم ، هل جرّبتموهم ؟ لا والله إلى الآن لم يتفق لكم أن تجربوهم ، لا تزال هذه الأرض بكرّاً ، ولا تزال هذه التجربة جديدة ، جرّب أيها الأخ هذه الأمة التي ملأت العالم كلّهُ ، وهي وراءكم وأمامكم إن شاء الله ، وتأخذون منهم ما هو أغلى وأعلى وأثمن وأعزّ من كلّ سلاح تأخذونه من أي قوة كبيرة .

هذه كلمتي ، وأنا قد أسهبت فيها واسترسلت أكثر مما قدّرت ، وما زوّرتُ من الكلام وما ادّخرت ، ولكن هو الدافع الإيماني ، والعرق العربيّ الإسلامي الذي ينبض ، الذي يثور ، الذي يملك عليّ مشاعري ، الذي يدفعني إلى أن أقول هذه الكلمة مرتجلةً ، وأتركها مدوِّيةً مجلجلةً في دول العالم كله ، وتقبّلوا مني أصدق التحيّات ، وأطيب التمنّيات .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

بمحضر الأمير محمد فيصل ابن المرحوم جلالة الملك

صلة نظام التربية والتعليم بواقع المجتمع واتجاهاته وميوله

ألقي العلامة الندوي هذه الكلمات بمحضر
صاحب السمو الملكي الأمير محمد الفيصل ابن
المرحوم جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز ،
بمناسبة عقد المؤتمر العالمي الأول للتعليم
الإسلامي في مكة المكرمة في ١٢ / ربيع الآخر إلى
٢٠ / ربيع الآخر سنة ١٣٩٧هـ (٣١ / مارس ،
٨ / أبريل ١٩٧٧م) والذي رأسه صاحب السمو
الملك الأمير محمد الفيصل ، وإليك كلمات
العلامة الملقاة فيه :

تالیمات مالک و وصیہ مالک زید راجہ کے مجموعہ میں سے

میں سے تالیمات مالک و وصیہ مالک
میں سے تالیمات مالک و وصیہ مالک

میں سے تالیمات مالک و وصیہ مالک
میں سے تالیمات مالک و وصیہ مالک
میں سے تالیمات مالک و وصیہ مالک
میں سے تالیمات مالک و وصیہ مالک
میں سے تالیمات مالک و وصیہ مالک
میں سے تالیمات مالک و وصیہ مالک
میں سے تالیمات مالک و وصیہ مالک
میں سے تالیمات مالک و وصیہ مالک
میں سے تالیمات مالک و وصیہ مالک
میں سے تالیمات مالک و وصیہ مالک

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين :

أما بعد ! فإن كثيراً من رجال التعليم والتربية في الشرق والغرب اعتادوا قديماً وحديثاً أن يبحثوا في قضية التعليم والتربية ، كقضية منفصلة عن الحياة والمجتمع ، ليست بينهما صلة إلا الصلة المؤقتة العارضة ، كأن التعليم قنطرة يعبر بها الإنسان نهراً من الأنهار ، ويصل من بر إلى بر ، ثم يعود إلى موطنه الأول بنفس السيرة والنفسية والخلق والفكرة ، والتعليم عندهم حاجة من حاجات البشر يقضيها الإنسان ثم يعود إلى بيته ، كما يعود من السوق ومن المزرعة بل من ميدان الحرب ، فلا يحكمون على نجاح التعليم وإخفاقه إلا بالمعلومات التي تلقنها الرجل المثقف ووعاها ، وبالأرقام التي حصلها في الاختبارات ، والشهادات التي يحملها ، واللباقة التي يتكلم بها والأناقة التي يعيش بها ، ولا يقيسون نجاح عملية التعليم والتربية بمقاييس عملية واقعية اجتماعية ، وقد صار كثير من هواة التعليم يقيسون رقي بلد ، ويحكمون على نهضته ومستواه الحضاري ، بعدد الجامعات الموجودة في هذا البلد ، وإن كانت غير مؤثرة في حياة البلاد مطلقاً ، تعيش فيها كقنصليات أجنبية ، وسفارات خارجية لا تؤثر في الشعب ، وقد تكون هذه الجامعات عاملاً قوياً من عوامل التقويض الاجتماعي ، والفوضى الخلقية والفكرية ، وقد تكون أوكار الفساد والانحلال والقلق والتذمر والتعطل والبطالة ، ويكون المتعلمون فيها أو المتخرجون منها طليعة دعاة الإفساد والاضطراب ، كما هو الشأن في كثير من البلاد الشرقية ، الآسيوية والإفريقية .

إنها نظرة تقليدية غير واعية يجب أن تتطور وتتغير ، ولنكن نحن المسلمين - وفي مقدمتهم قادة الفكر وعلماء التربية - رواد الحقيقة ، مقررين للواقع ، قوامين بالقسط ، شهداء لله ، غير مسترسلين إلى الخيال ، والمعاني الشعرية ، والنظريات التقليدية ، فلنستعرض واقعنا ، ولنقارن كتاجر جاد مخلص ، بين ربحنا وخسارتنا ، وبين المسافة التي قطعناها والمسافة التي

يجب علينا أن نقطعها ، وبين المنجزات والمعطيات ، وبين المشاريع والمخططات .

إن هذه البلاد هي المختبر الأول للتعاليم الإسلامية ، والدعوة الإسلامية ، وعلى هذه الأرض الطيبة تمثلت أروع رواية من روايات الصدق والإخلاص ، والوفاء والفداء ، والفتوة والبطولة ، التي شهدتها التاريخ ، فهي صفحة منشورة ، كتب كل سطر من سطورها من نور ، ويلقى على كل من يعيش فيها ويزورها دروساً في العقيدة ، والخلق ، والسيرة ، ويجسم التاريخ الإسلامي بحيث يفهمه كل إنسان ، ويراه رأي العين ، إن الجامعات الغربية الشهيرة ، والمراكز الثقافية الكبيرة تلجأ لغرس المعاني والحقائق التي تعلمها ، ولتقريب البعيد ، وإيضاح الغامض وإعادة المناظر التاريخية ، والحضارات القديمة وتجسيمها ، إلى مسرحيات وتمثيلات ، وإلى رحلات وجولات في الآثار القديمة ، والمدن العتيقة ، وإلى مخيمات ومهرجانات ، يقضي فيها الطالب وقتاً محدوداً في جو تاريخي أو حضاري خاص ، تحلّق عليه روح تختلف عن الروح العصرية ويستنشقون نسائم العهد القديم ، وكلها محاولات صناعية ، بعيدة عن الحقيقة .

أما الطالب الذي يعيش في هذه الجزيرة ، فإنه يستحضر هذه المعاني كلّها ، ويعيش فيها ، فكلُّ ذرة من ذرات هذه الصحراء ، وكلُّ جبل من جبال هذه الجزيرة ، يذكره بحادث من حوادث التاريخ الإسلامي الأول ، ويذكر بما قامت له هذه الجزيرة وعاشت ، وبما أريق في سبيله من الدماء الزكية ، ومما كانت عليه في الجاهلية من جهل وقهر وخمول ، وبما عادت إليه بعد الإسلام من علم وغنى وعزٍّ ، وبمن يرجع إليه الفضل في ذلك ، وما هو مصدر هذا الانقلاب ، والتحول الذي ليس له نظير في تاريخ الإنسان .

ثم إن هذه البلاد جعلها الله مركزاً للحج ، وله روحانيته ، وتأثيره في النفوس والقلوب ، ويجتمع فيه أكبر عدد يجتمع في أي مكان في العالم ، من أهل القلوب المؤمنة ، والنفوس الصافية والأرواح الملتهبة ، الذين ساقهم الإيمان والحنان وحب مركز الإسلام ومهبط الوحي ، يتهافنون عليه كالفراش

على النور ، والظماء على الماء ، يتمنون أن يمشوا إليه على أهدابهم ، ويستهنون في سبيل ذلك بكل غالٍ ، ويستعذبون المشاق ، فيتكهرب هذا الجو بالإيمان والحنان ، ويسري تياره إلى النفوس الخاملة ، والجدران والأخشاب الجامدة ، فهل هنالك مدرسة أقوى من هذه المدرسة الإيمانية ، وأقدر على أداء رسالة العلم والأخلاق ، وشحن النفوس بقوة جديدة تتغلب على التيارات المادية والاتجاهات العصرية ؟!

ثم إن اللغة التي تسود في هذه البلاد هي اللغة العربية التي نزل فيها القرآن ، ونطق بها الرسول ، والقرآن يتلى في كل مكان ، والأذان يعلو ويدوي في كل ناحية ، ولا يوجد في هذه الجزيرة - والحمد لله - دينان ، إنما يحكمها ويعيش فيها دين واحد ، هو الدين الإسلامي الحنيف ، ثم أكرم الله هذه الجزيرة أخيراً بأن وفق حكومتها - المملكة العربية السعودية حرسها الله - لرفع شعار الإسلام ، وتحكيم الشريعة ، وتنفيذ الحدود ، والقوانين الشرعية ، وقد قامت على أساس الدعوة ، وعلى التوحيد والسنة ، واتباع السلف الصالح ، فكان كل ذلك عوناً على تهئية الجو الملائم لنشوء الفرد المسلم ، الصالح الواعي ، وتيسير مهمة التعليم والتربية في هذه البلاد ، وتذليل العقبات التي تعترض في سبيلها ، وإزالة جميع العوائق التي تواجهها البلاد غير الإسلامية ، أو البلاد التي امتحن فيها الإسلام والمسلمون بقيادات محاربة للإسلام ، أو منافقة مضطربة أو ضعيفة الثقة بصلاحية الإسلام في هذا العصر .

هنا نقف وقفة قصيرة أيها السادة ! ونقول : كان من المعقول المنتظر ، بل من المفروض المؤكد أن يكون الشاب المثقف في هذه البلاد شاباً مثالياً في استقامة الخلق وحسن السلوك والتماسك أمام المغريات ، والتمرد على الشهوات ، وفي قوة النفس والإرادة والصبر على المكاره والمشاق ، والدأب على العمل والتسامي عن مواضع الضعف ، والتضحية في سبيل راحة الوافدين إلى بيت الله ، لا يكون أقل من اجتهد قريش في رفادة الحجاج ، وحسن وفادتهم قبل الإسلام ، وأن يكون الرجل المثقف بقدر ثقافته أكثر تحلياً بهذه الأخلاق ، من مواطن لم تقدر له هذه الثقافة ، وكل من علا كعبه في العلم

والثقافة كان خليقاً بأن يقوم على القمّة من هذه الأخلاق ، لأنه نشأ في أحضان ثقافة إسلامية هادفة مؤمنة خططت تخطيطاً دقيقاً أميناً ، وأنفقت عليها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وجند لها أفواج من المسلمين والمربين ، واختير لها خيار الأساتذة والموجهين ، وقامت هذه المدارس تحت ظلال الكعبة وفي رحاب المسجد النبوي ، وفي حجر الإسلام ومهده .

إن نتيجة الجهود التعليمية التي تبذلها المملكة ووزارة المعارف الموقرة ، نتيجة ذات قيمة لا ينكرها عاقل منصف ، قد عرف هذه البلاد في ماضيها وحاضرها ، وعرف ما كانت عليه هذه البلاد من أمية فاشية ، وفقر في المدارس ومراكز التعليم حتى التعليم البدائي ، وبعد البادية العربية عن المبادئ الأولى للعلم وللإسلام وللإنسانية ، وما سببه الجهل لتعاليم الإسلام والانطواء على النفس والبادية ، من عادات همجية واستهانة بحياة الإنسان ، بل بحياة المسلم ، والجراءة على سفك الدماء ونهب الأموال ، وقلة الوسائل للاتصال بالعالم الخارجي وغيبة مظاهر الثقافة الأولى ، فإذا قارنا بين الماضي القريب والحاضر المستمر ، رأينا انقلاباً مدهشاً وقفزة واسعة ، أشبه بالخيال من الحقيقة ، ولم يسعنا إلا الاعتراف بضخامة عمل المملكة العربية السعودية أيدها الله ، وإنجازاتها في مجال النهوض بالبلاد عملياً وثقافياً .

إن النتيجة كانت أضخم وأعظم ، وأدعى للدهشة والاستغراب إذا تعاونت العوامل المؤثرة في تكوين السيرة ، وثقيف العقل ، وسبك الخلق أكبر تأثير ، وأزيل التناقض الذي يعانيه المسلمون في كل بلد ، فلم تكن فجوة بين مراكز التعليم التي تنحصر في جدرانها وبين الحياة التي تموج موج البحر ، فلا يؤتي التعليم ووسائل التربية أكلها ولا تتحقق أغراضها ، إلا إذا كان هنالك انسجام كامل ، وتعاون وثيق بين هذه المؤثرات الخارجية والداخلية ، وكانت تسير على خط واحد إلى غاية واحدة .

وهنا أذكر - بطريق الإشارة والإجمال - العقبات الرئيسية التي تعترض في سبيل استفادة البلاد والأمة ، بالمؤسسات التعليمية والتربوية المنتشرة في المملكة ، والتي إذا لم تحبط مساعي قادة التعليم ، وموجهي التربية ، وكبار

الأساتذة والمعلمين ، فإنها تحصرها في نطاق ضيق محدود جداً ، ليس كفاء هذه الجهود العظيمة ، وهي كما يلي :

١ - إن التعليم - مهما كان راقياً ، ومهما اتسعت شبكته ودقت ، وأحكم صنعها - لا يعطي ثماره الشهية ، ولا يؤثر تأثيره المطلوب إذا كان المجتمع يجتاز بمرحلة عنيفة غير عادية من الحالة النفسية أو الخلقية ، وكان مصاباً « بالهستيريا » المادية تحكمه المثل الزائفة والقيم السقيمة من تقديس المادة ، وتمجيد أصحاب رؤوس الأموال ، بصرف النظر عن قيمتهم الذاتية ومستواهم الخلقي ، هنالك تذوب هذه الطبقة من المثقفين الجامعيين وغير الجامعيين حتى المفكرين منهم والباحثين والمحققين في هذا الاندفاع القاهر ، كما تذوب قطعة صغيرة من اللحم إذا أُلقيت في معدن الملح وتحول في وقت قريب إلى قطعة من الملح .

إذاً لا يجوز التغاضي عن الحالة الاجتماعية في البلد وما تجتاح المجتمع من موجات وتيارات ، ولا بد من العناية بتقويم المجتمع ومكافحة الأوبئة والأمراض التي تفرسه وتنخر هيكله ، وذلك عن طريق الدعوة الدينية والخلقية ، وعن طريق الأدب الصالح والصحافة الهادفة التي تتقي الله في أعراض الناس وأخلاقهم ، وعن طريق سن القوانين والحسبة إذا كان لا بد من ذلك .

٢ - لا بد من قدوة صالحة ونماذج عملية في مختلف الطبقات في الاقتصاد وبساطة العيش والإيثار على النفس ، وعلوّ الهمة في خدمة الأمة والبلاد والاحتساب عند الله ، والقدوة الحسنة - كما يعلم الجميع - أكبر مؤثر نفسي في كل عصر وجيل ، وهي التي بعثت في الأجيال الماضية الروح والطموح ، فكان منها العلماء والمؤلفون ، وباحثون ومحققون ومصلحون ومجددون ، من الطراز الأول ، احتسبوا عملهم في التعليم والتأليف والإصلاح والتجديد ، لا يريدون على ذلك جزاءً ولا شكوراً ، وكان منهم عماليق في الفكر ، ونوابغ في الإنتاج قد حوّلوا مجرى التاريخ أحياناً كثيرة^(١) ، أما المتخرجون من

(١) ليراجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي : « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » (الجزء الأول والثاني) طبع دار ابن كثير بدمشق .

مدارسنا وجامعاتنا اليوم فقد انساقوا مع التيار الجاري ، وسايروا عصرهم ومجتمعهم في بناء المستقبل وتكوين حياة سعيدة ، وأصيبوا بمرض نستطيع أن نسميه : CAREERISM .

٣- إن مدرسة الإعلام في كل بلد قد أصبحت أقوى من كل مدرسة ، وأوسع من كل مدرسة ، والتي أصبحت في البلاد « المتمدنة الراقية » كالهواء والماء الذي لا يستغني عنهما إنسان ، والتي أصبحت لها الكلمة الأخيرة في تقويم القيم ، وفي موازين الأشياء وفي تصريف الميول والرغبات ، والتي صار بعض الخبراء يقولون إنها كالقلب ، إذا صلح صلح جسد المجتمع ، وإذا فسد فسد جسد المجتمع ، وكذلك الصحافة التي تقرّب البعيد ، وتبعدّ القريب ، وكان لها من السيطرة والنفوذ أن سماها الغرب بـ « صاحبة الجلالة » .

وقد كانت التوصيات لوزارة المعارف حكيمة ودقيقة ، إذ قالت في إحدى نشراتها : « وسائل الإعلام والنشر » والتوعية والإرشاد ، ورعاية الشباب تخدم الفكرة الإسلامية وتخضع - في أهدافها ووسائلها - للسياسة التعليمية ، وتوجه عن طريق المجلس الأعلى للتعليم ^(١) .

وتقول : « تسهم وسائل الإعلام في التوعية العامة التي تمهّد لتحقيق أغراض التعليم ، وإزالة العقبات التي تحول دون تنفيذها كما تسهم في تنمية روح الإيجابية بين المجتمع والمدرسة في التعاون مع الجهات التعليمية ، للوصول إلى ما يحقق أهداف التربية والتعليم على خير الوجوه » ^(٢) .

إن عدم وجود الانسجام التام في هذه المؤسسات العظيمة ، والوسائل القوية المؤثرة ، قد أحدث تناقضاً في مجتمعنا الإسلامي ، وبلبله فكريّة ، وحيرة مرديّة ، يعانيتها الشباب المسلم ، وفي الحقيقة عقّد مهمة رواد الإصلاح ، ورجال التربية ، ودعاة الفضيلة والاستقامة والاعتدال والصبر

(١) تاريخ التعليم في مكة المكرمة ، ترجمة الأستاذ عبد الرحمن صالح عبد الله ص (١٣٧) .

(٢) تاريخ التعليم في مكة المكرمة ، ص (٣٤٧) .

وعسرها ، وجعل كثيراً من المشتغلين بمهنة التعليم ، والمكافحين في سبيله يعتقدون في بعض الأحيان أنهم يضيعون جهودهم ووقتهم .

إن الشاب المسلم يعالج صراعاً مريراً ، هائلاً عميقاً ، إنه يتلقى من مؤسسة الإعلام ، ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون ألواناً مختلفة من التوجيه ، إنه يسمع إذاعات وأحاديث وبرامج قد تقضي على البقية الباقية من آثار التربية الإسلامية ، وتحدث فيه ثورة فكرية ، وقلقاً نفسياً ، والصحافة التي هي « صاحبة الجلالة » في نظر كثير من الناس تقدّم إليه في أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف ، قبل أن يتلو شيئاً آخر ، فأول ما يقع عليه نظره صورة مهيجة ، وعناوين مثيرة للغرائز ، ومقالات باعثة للشكوك مزعزة للإيمان والثقة ، فيتلقى هذا في رغبة ونهامة ، وفي شوق واستجابة ثم تقع في يده كتب علمية ، لها عناوين هائلة ، وأسماء مرعبة ، صادرة من أقلام أناس ، آمن هذا الشاب بفضلهم وعبقريتهم ، فيقرأ ما يشكّكه في الدين ، ويشكّكه في التاريخ الإسلامي ، ويشكّكه في مصادر الشريعة الإسلامية ، وحتى في مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشكّكه في صلاحية هذه الأمة ، وفي خلود الرسالة التي قلدها ، يشكّكه في صلاحية اللغة العربية ، فيتلقى هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة الطريفة من أفكار ومبادئ وإغراءات ، من نظريات علمية ، ويقع من كل ذلك في حيرة لا تعدلها حيرة ، فخلق بكل هذا أن يقع الإنسان - وإن كان ناضج الفكرة ، مختمر العقل ، حصيف الرأي - في حيرة فكيف بالشباب الغض الناعم ، وكيف بهذه البراعم الناعمة التي لم تتفتح بعد ، كيف يرجى منه أن يقف أمام التيارات المتصادمة ؟!

إن مثل ذلك كمثّل عَجلة أو مركبة ركب فيها فرس في الأمام ، وفرس في الوراء وكلاهما قويان ، فكما أن هذه العجلة من المعقول جداً ، أن يكون ركباًها في حيرة من أمرهم ، هذا يجرها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحة يميناً وشمالاً .

إن الأدب الذي لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم

العربية الكبرى ، التي كان لها التوجيه ، وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، غرس في قلوب الناشئة ، وفي قلوب الشباب ، بل في قلوب كثير من الكهول بذوراً من الشك والاضطراب ، تشككوا حتى في وجودهم ، تشككوا في كل ما تواتر واستفاض وأصبح من قبيل البديهيات ، إن هذه الكتب التي أريد من ورائها رزق أو شهرة ، أو زعامة فكرية ، أو هتاف وتصفيق حاد ، غرست في قلوب شبابنا الشك والحيرة والتناقض .

وقد أصبحت زيادة قسط مواد التسلية ، بل البرامج الشائقة المثيرة غير الهادفة في برامج الإذاعة والتلفزيون ، قضية شاغلة لتفكير رجال التربية ، والمعنيين بقضايا الشباب في الغرب وفي الشرق .

وقد دفعت هذه الزيادة الشباب من الجدية والصبر ، والعكوف على الدراسات ، وإعداد الواجبات المدرسية إلى تسلية النفس ، والتهرب من كل ما يتطلب العناء والمثابرة ، والعمق ، بل حمل ذلك كثيراً من رجال التربية ، وعلماء النفس على الاعتراف بأن هذا الاتجاه قد أغرى كثيراً من الشباب بإجراء تجارب في المغامرة ، والاعتداء على النفوس والأموال ، وأفلت الزمام من قادة التربية ، وأولياء الأسر والبيوتات ، وهبط مستوى ثقافة الطالب هبوطاً كبيراً ، لأن هذه البرامج قد استحوذت على حيز كبير من وقته وجهده ، وهي قضية تستقطب عناية المعنيين بقضايا التعليم والتربية وتطلب منهم حلاً سريعاً ، وعلاجاً ناجعاً .

٤ - وأشد من هذا خطورة هو ما اعتاده كثير من بلادنا الشرقية العربية ، والإسلامية ووزارات التربية فيها من إرسال بعثات من الشباب إلى أوروبا وأمريكا ، ولم تنضج عقولهم بعد ، وليست عندهم حصانة خلقية ، ويزيد الأمر خطورة إذا كان فيها كثير من الشباب المراهقين ، وهي أدق مرحلة من مراحل حياة الطالب ، وأشدّها حساسية ، إن توجه هؤلاء الشباب إلى بلاد موبوءة ، قد انتشر فيها الجذام الخلقي ، واضطربت فيها أسس الحياة الفاضلة ، والقيم والمثل ، اضطراباً كبيراً ، وأفلت الزمام من يد رجال التربية ، مجازفة بشخصيات الجيل الصاعد الذي سيتسلم زمام القيادة

والتوجيه ، وأملنا في أنهم سيجنون أفضل ثمار الثقافة الغربية ، والعلوم
التجريبية النافعة ، ويتحرزون من مساوئها ، وثمارها المرة ، إغراق في
التفاؤل ، ومخالفة لطبائع الأشياء ، ومنطق الواقع ، خصوصاً إذا كانت
إقامتهم في أسر أوربية أمريكية ولم يكن نظام للأروقة الخاصة التي يسودها
الجو الإسلامي ، ويهيأ فيها الزاد العلمي والتوجيهي ، فما مثل هؤلاء الشباب
في هذا الخضم من الحضارة الغربية إلا كما قال الشاعر القديم :

ألقاه في البحر مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء !

٥ - وليس أقل من هذا كله خطورة ودقة قضية تعليم الفتاة المسلمة ، فإنها
قضية تحتاج إلى دقة واستقلال فكري ، وتحرر من تقليد مفهوم التعليم
النسوي ، الذي أخذت به الأقطار الغربية والشرقية في الظروف التي تختلف
عن ظروفنا كل الاختلاف ، وتحتاج إلى تخطيط فيه الإبداع وفيه الأصالة ،
وفيه الذكاء ، وفيه الجراءة ، وتاريخ البلاد والأمم يشهد بأن أعظم أسباب
الانحطاط والفوضى التي أدت إلى زوال الأمم وانقراضها ، وانحطاط المدنات
وانهيارها ، هو تفكك نظام الأسرة واختلال الميزان في الحياة المنزلية ، وزهد
النساء فيها ، والتهرب من مسؤولياتها وانتشار السفور الوقح ، والتبرج
الجاهلي ، فما رأينا مجتمعاً مائلاً إلى التدلي والانحطاط ، وأمة تسير بخطى
سريعة واسعة إلى الزوال والانقراض ، إلا وقد فشا فيها هذا الداء ، وبدأت
السيدات فيها ينصرفن عن الحياة المنزلية وتكاليفها ، ويزهدن في « الأمومة »
ومسؤولياتها وحضانة الأولاد ، وإنشاء الجيل الجديد ، والاعتناء بتكوين
البيت الصالح الذي يجد فيه الرجل جميع أسباب الراحة والهدوء ، وتخيل إذا
دخله أنه في الجنة ، وبدأت السيدات فيها ينصرفن عن كل ذلك إلى مشاركة
الرجال في وظائفهم ، ومجالات نشاطهم ومزاحمتهم بالمناكب ،
ومسائرتهم ، بل ومنافستهم في جميع ميادين الحياة ، وهذا الذي مني به
المجتمع الغربي ، فتفكك نظام الأسرة وفسدت الخلايا الاجتماعية ، التي
كانت مركز القوة ، ومنشأ الجيل الجديد ، الذي ساد العالم في الماضي ، وقد
بدأ علماء الاجتماع في الغرب يعترفون بهذا الخطأ في صراحة وجراءة ، ولكن

الزمام قد أفلت منهم ، وبلغ السيل الزبى ، وفاضت كأس الحياة ، وهم يتخوفون نهاية هذه الحضارة قريباً .

فتقليد هذا النظام في بلد شرقي إسلامي ، فضلاً عن مركز الإسلام ومعقله ، وإعادة هذه التجربة الفاضلة ، مخاطرة بسلامة هذه البلاد ، وشخصيتها ورسالتها ، فلنعتبر بهذه التجارب ، ولنكن على حذر من إعادتها في بلادنا التي يتوقف عليها مستقبل الإسلام ، والسعيد من وُعظ بغيره .

وأختم هذا البحث الذي قد طال بعض الطول ، والحديث ذو شجون ، بكلمتي الأخيرة ، وهي أن سياسة التعليم في هذه البلاد التي عرضنا بعض نماذجها ، والتقطنا منها أهم توصياتها ، سياسة إسلامية رشيدة ، والمناهج التعليمية مناهج خاضعة لهذه السياسة بشكل عام ، وهي مستعدة لاشك لتطوير أفضل ، وترقية مثلى ، وإن وسائل هذا التعليم التي تملكها المملكة العربية السعودية ، تستخدمها بهمة عالية ، وأريحية فائقة ، واستعداد الشعب للانتفاع بها عظيم ممتاز ، ومساعدة البيئة والأجواء ، التي تغذي العاطفة الإسلامية وتذكر برسالة الإسلام متحققة متوفرة .

وكل ذلك كفيل بإبراز النتائج الجسيمة العظيمة ، وتحقيق أهداف التعليم الإسلامي تحقيقاً لا يوجد له نظير في العالم الإسلامي ، كل ذلك ممكن بسهولة إذا أزيلت الموانع ، والمتناقضات ، وحصل الانسجام التام بين عوامل التأثير والتكوين ، ومدارس التربية والتعليم ، وسدت المنافذ التي يتسرب منها الفساد والضعف والتناقض ، داخلية كانت أو خارجية ، وما هو بعمل شاق عسير على هذه المملكة العظيمة التي قامت على أساس العقيدة والدعوة ، وعنيت بقضية الإسلام في كل بلد ، وتكفلت التعليم الإسلامي ، والدعوة الإسلامية في القارات البعيدة ، وحملت راية التضامن الإسلامي ، ولا على وزارة المعارف الموقرة التي يقودها رجال العقيدة والدعوة ، وأهل الغيرة الإسلامية ، والفقه في الدين ، ولو تحقق كل هذا ، كان حدثاً كبيراً في تاريخ الإسلام المعاصر ، وكان قدوة لكل بلد إسلامي ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

بمحضر صاحب السمو الملكي ...
(حاكم المدينة المنورة)

الإنسانية تنتظركم أيها العرب !!

ألقي العلامة الندوي هذه المحاضرة ارتجالاً
بمحضر حاكم المدينة المنورة في الجامعة الإسلامية
(بالمدينة المنورة) ، حضر فيه مفتي المملكة
الشيخ عبد العزيز بن باز ، وإمام الحرمين الشريفين
الدكتور عبد الله السبيل ، وقاضي المدينة الشيخ عبد
العزيز الصالح ، وعدد وجيه من كبار أساتذة
الجامعة ، وأعيان البلد ، بعد ختام المحاضرة علق
عليها الشيخ عبد العزيز بن باز تعليقاً طيباً
بالاستحسان والقبول ، وإليك هذه المحاضرة
بكاملها :

الحمد لله رب العالمين وصلى الله تبارك وتعالى على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين وبارك وسلم ، أما بعد :

حضرات السادة الأجلاء ! لقد اعتاد المؤلفون القدامى إذا افتتحوا كتاباً والتمسوا العذر للتأليف قالوا : أمرني فلان ، أمرني من أمره حكم وطاعته غنم ، يحلو لي أن أرَدَدَ هذه الكلمة باستحقاق مناسب للحال ، وما كان يجول بخاطري أنني سأسهم في هذا الحفل الكبير الذي له قيمة كبيرة بتشريف صاحب السمو الملكي وحضرة رئيس القضاة صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز الصالح ، وسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، وهذه صفوة مختارة نخبة من أعلام العالم الإسلامي اليوم ، حاشاي إذا ذكرت نفسي الصغيرة ، ولكن هذا شرف وهذه فرصة كريمة يجب أن تنتهز ، ولعلّ الله يفتح عليّ بما ينفعني قبل كلّ واحد وما يكتب عند الله من حسناتي ومن حسنات هذه الساعة .

ما عساي أقول لكم أيها الإخوان ! أيها السادة الأجلاء ! إن من سبقني من أهل الفضل قد أشبع الكلام وأحاط بالأطراف وأفاد ولكني إذا رأيت مندوحة في الكلام ومبرراً ، فذلك ما ألهمت في هذه الساعة . عفو الساعة فيض الخاطر ، وهو أن أبلغ إليكم أمانة عزيزة في عنقي ، أمانة الشعوب التي زرتها ، والبلاد التي أتاح الله لي الفرصة لزيارتها ، وأبلغ إليكم رسالة من الشعب الذي أُنتمي إليه الشعب المسلم الغيور الذي يقطن شبه القارة الهندية ، والشعوب الإسلامية وغير الإسلامية .

أيها السادة ! إن هنالك كل شيء ، إن العالم قد اتّخم بالحضارة ، واتّخم بالآلات ، واتّخم بالمعلومات ، واتّخم بالمكتبات ، واتّخم بالمطبوعات واتّخم بالصحافة واتّخم بنتائج حصاد العقل الإنساني النابغ ، ولكنه يشكو فراغاً ، يشكو فراغاً في هذا المجتمع ، يشكو فراغاً في هذه الحياة ، وفراغ القلب المخلص المتألم المؤمن ، فراغ العقل الواعي المؤمن ، فراغ

الإخلاص ، فراغ التألم للبشرية ، إنكم تجدون في أوربة ، تجدون في آسيا وإفريقية على تخلفهما ، كل ما أنتجته القرائح البشرية ، وكل ما دبّجته الأقلام ، كل ما خلفه السلف للخلف ، ولكن هذا العالم يشكو فراغاً ، الفراغ الذي أفقد رونق كل شيء ، الفراغ الذي طمس معالم النور ، معالم الحياة ، الفراغ الذي جعل كل ذلك هباءً منثوراً ، يا ليتة كان هباءً منثوراً ، لا ، ولكنه قد حوّل هذه الآلات إلى آلات مدمّرة ، وحول هذا العقل إلى عقل مدمر ، إلى عقل مفسد ، إلى عقل شيطاني إبليسي ، وحول هذا المدينة جحيماً ، إنه قد استفاد ، قد استمد في العهد الذي تحدث عنه سماحة الشيخ أستاذنا الشيخ عبد العزيز ، وتحدث عنه العالم الجليل الشيخ محمد الحبيب الخوجة ، قد استمد هذا العالم كله ذلك النور ، تلك الهداية ، وملاً ذلك الخواء ، ملاً ذلك الفراغ الهائل الواقع فيما كانت تملكه البشرية في ذلك العهد الراقي المتمدن ، إنه استمد من هذه المدينة التي كانت تعيش في عزلة عن العالم ، وفي أقصى العالم ، في هذه البلاد التي زهد فيها الطماعون ، وزهد فيها الطامحون ، وزهد فيها عباد النفس وعباد الشهوات ، وعباد الملك والسلطان ، زهدوا فيها لقلة خيراتها ، زهدوا فيها لقلة حولها وطولها ، زهدوا فيها لقلة الآثار المدنية فيها ، ولكن هذه المدينة ، هذه المدينة المنطوية على نفسها قد أفاضت على العالم الإيمان بعدما فقدته العالم كله ، بدياناته وبنظمه وبأخلاقه وبمفكره وبفلاسفته ، كان العالم يحتاج إلى الإيمان ، والإيمان قد فقد من مراكز كانت محتكرة للإيمان ، كانت مظنة للإيمان إذا صحّ التعبير ، إن المسيحية قد فقدت الإيمان نفسها ، إن اليهودية قد فقدت الإيمان نفسها ، إن البوذية قد فقدت الإيمان نفسها ، إن البرهمية فقدت الإيمان نفسها ، إن المجوسية قد فقدت الإيمان نفسها ، وكلها كانت تعيش ، تعيش في تذبذب ، تعيش في السراب ، تعيش في شكوك ، تعيش في ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، استفاد هذا العالم من هذه المدينة . أقسم بالله إن هذا العالم ، إن أثنى ما وجده هنا ليست المدنية ، وليست الحضارة ، وليست هذه الحواشي الرقيقة للمدينة ،

وليست هذه الفلوس التي كان يعيش بها العالم كله ، إنه استفاد الإيمان القوي ، الثقة بالله ، التوحيد الخالص النقي ، الإيمان بوحدانية الله تبارك وتعالى ، ثم الإيمان بكرامة الإنسان ، الإيمان بأن الإنسان هو أشرف خلق الله ، هو أشرف صنائع الله ، وأفضل صنائع الله ، وأجمل صنائع الله ، هذه التحفة ، هذه القوة ، القوة الكامنة ، القوة الدافقة التي استفادها العالم من هذه الجزيرة ، فعاد كل شيء له معنى ، قد كان قد أصبح كل شيء ليس له معنى ، ألفاظ وأسماء بلا مسميات وألفاظ بلا معانٍ ، وصور ودمى لا روح فيها ولا حياة : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] هكذا كان مثل العالم كله ، فالشيء العزيز ، الشيء النادر الذي يئست منه الإنسانية ، ونفضت منه يدها ، وقطعت منه رجاءها ، الشيء الذي كان يحول العالم كله عالماً إنسانياً ، قد أصبح غابة تحكم فيها شريعة الغابات وقانون العصابات ، بحرّاً يأكل فيه الحوت الكبير الحوت الصغير ، امتهن الإنسان نفسه ففقد القيمة وصار يعبد كل ما كان دونه فضلاً عما كان فوقه ، من هناك وجد الإيمان بعد آلاف من السنين ، بعد فترة قصيرة قضتها المسيحية ، على هدى من الله ، وبعد فترة قصيرة قضتها الرسالات السماوية التي أكرم الله بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولكنه أصبح نورهم ونورها ضعيفاً ، كاليراعة التي تلمح في ليلة باردة مطيرة ، هنا طلعت الشمس الوهاجة ، هنا طلعت الشمس المشرقة التي تملأ القلوب إيماناً وحماساً وحرارة وحياة ، فأبلغكم أيها الإخوان ! أتشرف بهذا التبليغ ، وأستحل به هذه الجسارة التي ارتكبتها أمامكم ، أبلغكم رسالة الإنسانية المعذبة ، أبلغكم رسالة الإنسانية التعسة ، أبلغكم رسالة الإنسانية الشقية ، بنفسها وبعلمها وبعقلها وبمدينتها ، هؤلاء الملايين من البشر في الهند والله إنهم متهيئون ولي حق أن أتحدث عنهم بحكم أنني مواطن ، بحكم أنني ابن الهند ، وبحكم أنني ولدت ونشأت وتعلمت هناك ، أبلغكم أنين هذا الشعب أبلغكم زفرات هذا الشعب أبلغكم تأوهات ، يقول بلسان الحال وبلسان المقال أين المنجدون !! أين المغيثون !! إنهم ينظرون إلى هذه الجزيرة

لأنهم عرفوا أن هذه الجزيرة أفاضت عليهم هذا النور بعدما انطفأ النور كله ، وأفاضت عليهم الحياة بعدما فقدوا الحياة كلها ، إن هؤلاء المجوس ، إن هؤلاء البوذيين ، إن هؤلاء الوثنيين ، والله متهيثون لقبول الرسالة كما كان يتفضل بها فضيلة الشيخ عبد العزيز وصاحب السمو الملكي ، إنني أقول لكم وأحلف بالله وأنا هناك في رحاب مسجد الرسول ﷺ أنا تحدثت في حفل حاشد في إحدى عواصم الولاية المتحدة الشمالية في الهند ، في ظل أكبر محكمة قانونية في الهند في إله آباد تحدثت إليهم وكان يرأس هذا الحفل محام حقوقي كبير بارز من كبار الحقوقيين ، تحدثت عن الإسلام ، وتحدثت عما تقاسيه الإنسانية والبشرية ، فلما جاء دوره أثنى عليّ وأيدني ، وكلهم عيون شاخصة ، وقلوب متطلعة ، وآذان واعية إلى أن ينجدهم الإسلام ، إن هذه الأرواح إنني أقول لكم يجب علينا أن نتقي الله في هذه الأرواح المتعطشة ، في هذه القلوب الخاوية ، في هذه النفوس الزاوية ، اتقوا الله أيها الإخوان وأنا أقول - أوصي نفسي أولاً وإياكم وأنا إنما أعتبر نفسي أحد أعضاء هذه الأسرة الكريمة وأتشرف بذلك - اتقوا الله في هذه الشعوب التي تتسكع في الدياجير ، التي تتسكع في الظلام ، التي ترزح تحت نير الاستعباد ، والاستعباد ليس حكماً ، ليس حكم الأجانب ، إن حكم الأجانب شيء مؤقت ، شيء قصير زائل ، لقد زال هذا الظل البغيض من الهند من غير رجعة ، فلا يرجع إليها أبداً ، ولكن حكم الخرافات ، حكم الجهالة ، حكم عبادة النفس ، هذه أطول أمداً ، وأعمق مدى وأوسع أرجاء من هذا الحكم الذي هو خلاف الطبيعة ، الذي هو ضد الطبيعة ، والذي هو غير صالح للبقاء . إن تقليد حكم أمة الأمة على أساس الاستعباد ، وعلى أساس الاستغلال ، قد زال ، إن العصر قد تنكر له وأصبح شيئاً لا محل له ولا مجال له في هذه الحياة المتقدمة ، ولكن علينا أن نهزم هذا الحكم ، حكم الشهوات ، حكم النفوس ، وحكم المادة ، المادة الرعناء ، التي قد مجّها الناس ، وما هذه الطريق التي تستنكرها الخنافس وغير الخنافس إلا آثار ذلك المرض الذي قد تسرّب ، قد نفذ إلى الأعماق ، إنها كالجدري ، إذا كان حمى فإنه يظهر ، يثبت وجوده بالجدري إن المدينة

الأوربية قد أثبتت مرضها وعلتها بهذا الجدري ، الذي ظهر على وجه المدنية الباهر الجميل ، فهذه كلها حركات التذثر حركات السامة التي قد بدت طلائعها من أمريكا ومن أوربة ، ما هي إلا آثار السامة ، آثار الضجر ، آثار الضجر النفسي ، وآثار اليأس من صلاحية هذه المدنية للقيادة ، وهنا دور الإسلام ، هنا دوركم أيها الأماجد! هنا دوركم يا أشبال الأسود! هنا دوركم يا قادة البشرية ، هنا دوركم يا أساتذة المدنية ! يا أساتذة العالم ! هنا دوركم ، وحرام علينا أن نفوت هذه الفرصة ، أن تفوتنا هذه الفرصة الكريمة هنا الشعب الهندي البرهمي ، هنا الشعوب المسيحية ، هنا الشعوب البدوية ، التي نصف متعلمة في إفريقية وفي غير إفريقية ، هذه كلها تمد إليكم يد الاستغاثة ، وترفع إليكم صوتها النابع من أعماق النفس ، تقول لكم : إلى متى أيها العرب ! إلى متى أيها السادة ! تنتظركم تغيثونا وتبلون غلتنا ، وتشبعون جوعتنا ، وتنقذونا من هذه البرائن الوحشية ، من برائن الجهالة ، من برائن عبادة النفس ، من برائن عبادة المادية ، فهذا يطلب منكم ذلك الإيثار ، تلك التضحية ، ذلك الزهد ، ذلك الاستنكاف من الجري وراء المادية ووراء المظاهر ، كما فعل أسلافكم ، وفيكم كل أمل وفيكم كل صلاحية ، وإنني أستمحكم العفو إذا كنت قد تعدت حدودي وتخطيت ، وإذا كانت صدرت مني كلمة لا تليق بفضلكم ، ولا تليق بحقكم ، ولا تليق بكرامتكم ، ولا تليق بمنتكم علينا ، بتوجيهكم الدعوة لزيارة الجامعة ، وما أبصرنا بعيوننا ونحمد الله على ذلك ، من الإنجازات الكبيرة ومن البشائر العظيمة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إلى مندوبي البلاد العربية والإسلامية

لقد عقد في أبريل عام ١٩٤٧م المؤتمر الآسيوي في « دلهي » على دعوة من جواهر لال نهرو (رئيس وزراء الهند الأسبق) ، كان مؤتمراً عالمياً فريداً من نوعه ، وقد وجهت الدعوة لحضور هذا المؤتمر إلى عدد من البلاد العربية والإسلامية أن تبث بوفودها إليه ، وقد كان العلامة الندوي إذ ذاك مرتبطاً بحركة الدعوة والتبليغ (لمؤسسها الداعية الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي) ، فدعاه أمير جماعة هذه الدعوة حينئذ الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي (صاحب « حياة الصحابة ») إلى دلهي ، وأن يستعدّ لخطاب هؤلاء المندوبين المشاركين في المؤتمر .

وقد أعدّ العلامة مقالاً لهذا الغرض بعنوان « إلى ممثلي البلاد الإسلامية » ، وحضر المؤتمر ، ولكن لم يتهيأ له مجال القراءة لهذا المقال لضيق الوقت وعدم تهيؤ الجو ، لكنه نُشر فيما بعد في بعض الصحف الكبرى ، ثم نشر كرسالة مستقلة ، وأخذها العلامة في رحلته الأولى إلى الحجاز عام ١٣٦٦هـ ، وقدمها إلى كبار مسؤولي الحكومة ، وأعجبوا بها كثيراً ، وإليك - عزيزي القارئ - هذه الرسالة بكاملها :

عرجت على المؤتمر الثقافي العام ، الذي قد اشترك فيه ممثلو البلاد ، وبعثات الأمم ، ووفود النوادي ، فرأيت معرضاً للجنسيات ، والوطنيات ، والحضارات ، ورأيتكم أيها السادة المسلمون شامة بين الناس ، لا لأنكم تمتازون عن زملائكم في الشارة واللباس ، بل لأنكم تمثلون تلك الأمة العظيمة التي كانت ولا تزال شامة بين الأمم .

كان العالم قبل ثلاثة عشر قرناً سائراً سيره الطبيعي لا يُنكر من أمره شيء ، فكانت القرى والمدن عامرة بالسكان ، وكانت العواصم الكبرى زاخرة العمران ، شامخة البنيان ، وكانت الحرف البشرية ووجوه المعاش في ازدهار ، وانتشار . كانت الزراعة ، وكانت التجارة ، وكانت الصناعة ، فبينما كانت سكة الفلاح في شغل ونشاط كانت القوافل التجارية غادية رائحة بين الشرق والغرب ، وكانت الأسواق مشحونة بالمُتاجر والبضائع ، وكان الصناعون مكبّين على أعمالهم ، وكانت الحكومات والإمارات والدول غنية بأموالها ورجالها ، لكلّ وظيفة رجل كفؤ بل رجال أكفاء ، وكان على وجه الأرض كلّ نوع من البشر ، وكلّ لون من الحياة ، وكلّ مظهر من مظاهر المدنية ، لا يُرى في الحياة الإنسانية المادية عوز أو فراغ ، ولم تكن في المدينة وظيفة شاغرة يترشح لها مترشح جديد ، وكانت كأس الحياة مترعة لا تطلب المزيد .

في هذه الحال ظهرت أمة في جزيرة العرب ووجد نوعٌ جديدٌ من البشر ، وكأني بالأمم المعاصرة وهي تتساءل : أيّ داعٍ إلى ظهور أمة جديدة والأمم على وجه الأرض كثيرة منتشرة ، وما شغل هذه الأمة الحديثة ؟ وما مهمتها في العالم ؟

وكأني بها تقول : إذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للزراعة ، وعمارة الأرض فقد كان في فلاحي الطائف ، وأكّاري مدينة يثرب ، وزرّاع وادي القرات والنيل ، وربوع الكنج وجمنا غنى عن أمة زراعية جديدة ، فقد

أصبحت أراضي هؤلاء الفلاحين وبلادهم جنةً تدر لبناً وعسلًا ، وإذا كان المسلمون إنما بعثوا ليشغلوا بالزراعة فقط ، فلماذا لم يبعثوا في العراق ، وفي مصر ، والهند ، وهي بلاد مخصصة زراعية ، ولماذا كان مبعثهم في واد غير ذي زرع ؟

وإذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للتجارة ، فقد كان في يهود يثرب ، وفي أنباط الشام ، وفي أقباط مصر ، وتجار السند كفاية ، فقد أحكموا فن التجارة ، وانتشروا في العالم ، وإذا كانوا قد بعثوا ليشغلوا بالتجارة حقاً ، فلماذا لم يبعثوا على طريق القوافل التجارية ، وبقرب من أسواق التجارة الكبرى ؟

وإذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للصناعة وأعمال اليد ، فقد كان في قُيون البلاد المتمدنة ، وأصحاب الصنائع والحرب - وإنهم لكثير - غنى وكفاية !

وإذا كانت هذه الأمة إنما بعثت لتنضم إلى الحكومات الرومية والإيرانية ، وتشغل أفرادها وظائف هذه الحكومات ومناصبها ، فقد كان في أهل الشام وفارس غنى وكفاية في الإدارة ، وإنهم يزاحمون الأجانب بالمناكب ويدفعونهم بالراح .

وإذا كانت هذه الأمة بعثت لشيء هنيء ، ومطعم شهوي ، ومشرب مريء ، وملبس وضيء ، ومسكن بهي ، لا لشيء آخر وإنما مناهي وهمها أن تلقى لبوساً ومطعماً ، لم تكن بدعاً من الأمم ، وكانت منافسةً لنا في ميدان الحياة ، فحقاً لنا أن نقاتلها ، ونذودها عن مناهلنا ، وقد ضاقت بنا ، فكيف تسع أمة جديدة ؟

وإذا كانت هذه الأمة إنما تحاول ملكاً ، أو تريد أن تؤسس دولةً ، فيجب أن تصرّح بذلك ، وتتخذ له طريق الملوك والفاحين ، ولا تتظاهر بالدين .

وإنَّ الطريق إلى كلِّ ذلك - من زراعة ، وتجارة ، وصناعة ، ووظيفة ، وحية بذخ وترف ، وملك وشرف - غير الطريق التي سلكتها هذه الأمة الجديدة ، فقد سفَّهت أحلامنا ، وعابت آلهتنا ، ونعت على عقائدنا ، وأخلاقنا ، وأعمالنا ، ودعت إلى دين جديد ، وسارت في سبيل ذلك في

شوك وقتاد ، وجاهدت في غير جهاد .

لقد كان الطريق إلى الرفاهية ، أو الحكومة مسلوكةً معبدة ، قد سلكتها الأمم من قبل ، ومشى عليها الملوك ، وأصحاب الطموح في عصرهم ، فمن حال بينها وبين هذه الطريق ؟ وما الذي عدل بها عن جادة الحياة ، وهي معلومة واضحة ؟!

هذا ما أظنه تناجى به ضمير الإنسان العاقل في فجر الإسلام ، ولا ألومه ، ولا أستغرب هذا السؤال ، فإنَّ هذا السؤال طبعي ينبغي أن يهجم في قلب الإنسان ، وينطق به اللسان عند كل ناشئة ، فلماذا لا ينشأ هذا السؤال عند ظهور أمة بأسرها ؟

ما هو الجواب ؟ إذا كان الجواب في الإثبات ، وإذا كان مبعث هذه الأمة في الحقيقة بشيء مما ذكرناه ، ولم تكن لهذه الأمة مهمة جديدة في العالم ، ورسالة خاصة إلى الأمم ، كانت هذه الأمة حقاً من فضول الأمم ، ومن المتطفلين على مائدة العالم .

ولكن الله لم يبعثها لهذا ، أو لذاك ، والأمة والأشخاص لا يبعثون لشيء من هذا ، وإنما هي من طبائع البشر ، لا تحتاج إلى نبوة نبي ، ولا بعثة أمة ، وجهاد طويل ، وزلزال عالمي لم يُسبق في التاريخ ، زلزال في المعتقد ، والأخلاق ، والميول ، والنزعات ، وفي نظام الفكر ، ومنهاج الحياة .

لقد كان مبعثها لغرض سام جداً ، لمهمة غريبة طال عهد الإنسانية بها ، وتشاغلت أمم الأنبياء عنها حتى نسيها ، وذلك ما خاطب به الله سبحانه تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ! فنبه على أن هذه الأمة ليست نابتة نبتت في الأرض كأشجار برية ، أو حشائش شيطانية ، بل إنها أمة أُخرجت ولأمر ما أُخرجت ! وإنها لم تظهر لمصلحتها فحسب كسائر الأمم ، بل إنها أُخرجت للناس ، وذلك ما تمتاز به الأمة في التاريخ ، فما من أمة إلا وهي وليد أغراضها ، ورهين بطنها ، وشهواتها ، تعيش لأجلها ، وتموت في سبيلها .

أما الأمة الإسلامية فهي أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتجاهد في سبيل الله .

ظهرت نواة هذه الأمة في مكة - قلب جزيرة العرب - فقام العقلاء من قريش - وهم الآخذون بزمام الحياة في البلاد - ونثروا كنانة فكرهم ، وقاسوا الناشئة الجديدة بمقاييسهم التي عرفوها وألفوها ، ووزنوها في ميزان الإنسانية الذي طالما وزنوا فيه أصحاب الطموح ، فوجدوهم خفاف الوزن ، طائشي الكفة ، وذهبوا إلى إمام الدعوة الإسلامية ، وأول المسلمين في العالم - ﷺ - فقال قائلهم :

« إنك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم ، فرَّقت به جماعتهم ، وسقَّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم ، وكفَّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها » .

فقال له رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » .

قال : « يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مآلاً ؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مآلاً . وإن كنت إنما تريد شرفاً ؛ سودناك علينا ، حتى لا تقطع أمراً دونك . وإن كنت إنما تريد ملكاً ؛ ملكناك علينا^(١) » .

سمع رسول الله ﷺ كل ذلك في هدوء وتأنٍ ، ثم رفضه في غير شك وتأخير ، ولم يكن هذا العرض من قريش على شخص الرسول ﷺ فحسب ، بل كان على هذه الأمة التي يمثلها ، ويقودها . ولم يكن رفض رسول الله ﷺ لما عرضت قريش ، رفضاً عن نفسه الكريمة فقط ، بل كان رفضاً عن أمته إلى آخر الأبد .

اقتنعت قريش بهذه المحاوراة ، ويئست من مساومة هذه الأمة ، ولم تعد تعرض على رسول الله ﷺ مباشرة وعلى هذه الأمة بواسطة ما عرضته من قبل ،

وقطعت منها أملها .

وكان بعد ذلك صراعٌ مستمر ، ونزاعٌ طويل ، ولم يكن نزاعاً في أغراض المادة وشهوات البطن ، والاستئثار بموارد الرزق ، والتغلب على الأسواق ، بل كان نزاعاً بين الإسلام والجاهلية بمعنى الكلمتين ، نزاعاً بين حياة العبودية والانقياد لله تعالى ورسوله ، وبين الحياة الحرّة المطلقة التي لا تعرف قيداً ، أو لا تخشى معاداً ، ولا حساباً .

وكان من نتيجة ذلك معركة بدر الحاسمة ، وقد قاد النبي ﷺ إلى ساحة القتال جيشاً لا يزيد عدد المقاتلين فيه على ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً ، والجيش المنافس فيه ألف محارب ، وكان النبي ﷺ يعلم يقيناً أن لو وكل المسلمون إلى أنفسهم وقوتهم المادية ، فالنتيجة معلومة واضحة ، نتيجة كلّ قليل ضعيف أمام قويّ كثير العدد .

فزع الرسول إلى الله تعالى في إنابة نبي ، وإلحاح عبد ، ودعاء مضطر ، وشفع لهذه العصابة في كلمات صريحة واضحة ، نيرة خالدة ، هي خير تعريف لهذه الأمة ، وبيان لمهمتها وغرضها الذي خلقت له .

لم يقل رسول الله ﷺ : لو هلكت هذه العصابة ، وكانت فريسة للعدو ، أقفرت المدينة ، وأوحشت أسواقها ، وكسدت التجارة ، وبطلت الزراعة ، أو تعطل شغل من أشغال الحياة ، أو وقفت إدارة الحكومات ، لم يقل رسول الله ﷺ شيئاً من ذلك ، لأنّ شيئاً منها لم يتوقف على المسلمين ، ولم يقم بهم ، بل كان قبل وجود المسلمين ، ولا يزال في غنى عنهم ، ولكن الرسول ﷺ ذكر شيئاً بعث المسلمون لأجله ، وقام بالمسلمين وحدهم ، فقال : « اللهم إن تهلك هذه العصابة ؛ لن تُعبد » .

أجاب الله دعاء الرسول ﷺ ، وقضى بانتصار المسلمين على عدوهم ، وبقاءهم ، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطاً بقيام حياة العبودية بهم ، وقيامهم بها ، فلو انقطعت الصلة بينهم وبين العبادة ورواجها وازدهارها في العالم ، انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة ، ولم يبق على الله لهم حقٌّ وذمة ،

وأصبحوا كسائر الأمم خاضعين لنواميس الحياة وسنن الكون ، بل كانوا أشد جريمة ، وأقل قيمة من الأمم الأخرى ؛ إذ لم يشترط لبقائها وحياتها مثل ما اشترط لهم ، وكان كما أخبر الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٧] .

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط ، وبروا بهذا العهد ، وتذكروا أنهم إنما نُصروا على عدوهم - وقد كاد يأتي عليهم ويستأصلهم في ساحة بدر - وتركوا على ظهر الأرض ؛ لأن عبادة الله منوطة بهم على أرض الله .

بهذه الرسالة انبثوا في العالم وحملوها إلى الملوك والسوقة والأمم ، وفي سبيل ذلك هاجروا وجاهدوا ، ولأجل ذلك حاربوا وعاهدوا ، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعثون من الله إلى الأمم ، وحاملو راية الإسلام في العالم .

أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر إلى رستم - قائد الجيوش الفارسية : وأميرهم - فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة ، والزرابي ، وأظهروا اليواقيت والآلئ الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقة ، وسيف وترس ، وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حت داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضته على رأسه ، فقالوا له : « ضع سلاحك » فقال : « إني لم آتكم ، وإنما جئتم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا ، وإلا رجعت ! » ، فقال رستم : « ائذنوا له » فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ، فخرق عامتها ، فقالوا له : « ما جاء بكم ؟ » فقال : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ، ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً ، حتى نفضي إلى موعود الله » قالوا : « وما موعود الله ؟ » قال : « الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي » ^(١) .

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

أباح الله للمسلمين الطيبات ، وفسح لهم في طرق الكسب ووجوه المعاش ، ولم يضيق عليهم في ذلك ، فقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

وقال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

ولكن الله لم يبعثهم لذلك أمة ، ولم يرضه لهم غاية ومهمة ، بل خلقهم للسعي للآخرة ، وخلق أسباب الحياة لهم ، « إن الدنيا خلقت لكم ، وإنكم خلقتكم للآخرة » وجعل الحياة وأسبابها خاضعة لمهمتهم التي بعثوا لأجلها ، فإذا زاحمتهم في سبيل مهمتهم ، أو غلبتهم عليها ؛ رفضوها ، وإذا تلاكأ المسلمون في ذلك عاتبهم الله عتاباً شديداً وقال :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَابْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْفِكَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

أراد الأنصار رضي الله عنهم أن يتفرغوا لإصلاح أموالهم لأيام اكتفاء بأنصار الإسلام ، فعاتبهم الله على ذلك وأنزل : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

قال سيدنا أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه : « إنما نزلت فينا معشر الأنصار ، إنا لما أعز الله دينه ، كثر ناصروه ؛ قلنا فيما بيننا : لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها ، فأنزل هذه الآية »^(١) .

ولكن مع الأسف الشديد ، قد تشاغل المسلمون اليوم بالدنيا كالأمم الجاهلية ، وسعوا وراءها ، وعقدوا حياتهم بها ، فإذا أشرفتم على مدنهم

(١) رواه أبو داود في سننه .

وبلادهم من مرقب عالٍ لم تميزوا بينهم وبين أفراد أمة جاهلية ، سعي وراء المادة في غير اقتصاد ، واكتساب من غير احتساب ، سهر في غير طاعة ، وعمل في غير نية ، وتجارة في لهو عن ذكر الله ، وحرقة في جهل عن دين الله ، ووظيفة في الإخلاص لغير الله ، وحكومة في مشاقة الله ، شغل في ضلالة ، وقعود في بطالة ، وحياة في غفلة وجهالة .

هل إذا اطلعتم - يا سادتي - على بلاد إسلامية ، ورأيتم هذه الأمة في غدواتها وروحاتها إلى الأسواق والإدارات ، ومصالح الحكومة ، عرفتم أنها أمة خلقت لشيء آخر ، وبعثت لغرض آخر ، أسمى من هذه الأغراض ، التي يسعى لها الكافر والمؤمن .

إنَّ هذا الأسلوب من الحياة لحجة ظاهرة لأهل الجاهلية على المسلمين ، فلو نطقوا لقالوا : « ما ذنبنا ، أيها المسلمون ! إذ عرضنا على نبيكم المال ، والسيادة ، والملك ، فأبى ، ورفض كل ذلك ؟! ألا نراكم تسعون اليوم وراء الذي رفضه نبيكم بالأمس ، كأنما خلقتم لأجله ؟ فأبى الفريقين أشد ذنباً ، أمَّن عرض على محمد ﷺ المال والسيادة والملك تفادياً من الخلاف والنزاع ، فأبى ورفض ؟ أو من تهافت على ما رفضه سيده تهافت الظمآن على الماء ، والفرش على النور ؟

وإذا كنتم اليوم لا يهتمكم إلا المال ، أو الحياة ، أو الشرف ، أو حكم على قطعة أرض ، فلماذا تظاهرتُم بالأمس بالدين ، وأقمتُم الدنيا وأقعدتموها لأجله ، وكدرتم علينا صفو العيش ، لقد كنتم وكنا في غنى عن هذه الحروب الطاحنة التي أيتمت البنين ، وأيئمت النساء ، وأجلت الناس عن الأوطان !

أعيدوا إلينا إذاً تلك الدماء التي أريقتم في ساحة بدر ، وأحد ، وخيبر ، وحنين ، واليرموك ، والقادسية ، وأعيدوا إلينا تلك النفوس التي قتلت باسم الدين ، وأعيدوا إلينا تلك الأيام التي كنا نعيش فيها في وئام وهدهوء ، لا نعرف فيها إلا الأكل والشرب ، وقضاء مآرب النفس !

وماذا يكون جوابنا لو تعرض أحد من أخلافهم الأحياء وقال :

« ما غناؤكم أيها المسلمون؟! لقد ساهمتونا في أسباب الحياة ، وخلقتم لنا فوق ذلك مشكلات كثيرة في الحياة السياسية والاجتماعية ، ولا نراكم تسدون عوزاً ، أو تصلحون خللاً ، أو تلمون شعثاً ، أو تقيمون زيفاً في الحياة » .

عفواً أيها القراء ، وسامحاً أيها الكرام ، فقد طال العتاب ، وقديماً قال الشاعر العربي :

وفي العتاب حياة بين أقوام

من المعلوم أنَّ حياة الأمم بالرسالة والدعوة ، وإن الأمة التي لا تحمل رسالة ، ولا تستصحب دعوة ، حياتها مصطنعة غير طبيعية ، وإنها كورقة انفصلت من شجرتها ، فلا يمكن أن تحيا بسقي أو ري : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧] .

إننا - أيها القراء - أمة الحاضر ، وأمة المستقبل ، قد كتب لنا الخلود والنصر ، لأننا أصحاب دعوة ورسالة نبوية ، وهي الرسالة الأبدية التي قضى الله بخلودها وظهورها . فلسنا تحت سيطرة المادة وحكم الزمان ، بشرط أن نقوم بدعوتنا ، لنستقل برسالتنا ، ونعود أمة دعوة نبوية كما بدأنا ، دعوة فيما بيننا معشر المسلمين ، ودعوة في غيرنا من الأجانب في الدين .

لقد تخلفنا عن الأمم المعاصرة في العلوم الطبيعية ، والأسباب الحربية ، وفي الأخذ بأسباب الرقي المادي بعدة قرون ، وقد كانت المسابقة بيننا وبينهم كمسابقة الأرنب والسلحفاة ، إلا أن الأرنب كان ساهراً مع خفته وسرعته ، والسلحفاة نائمة رغم بطئها وثقلها ، فلو حاربنا هذه الأمم اليوم لاستغرق ذلك قروناً ، ثم كانت المقارنة بحساب دقيق ، فإذا أفاق العدو وسبقنا بشعرة في القوة المادية والعدد الحربية رجحت كفته ، لأن المادة عمياء ، وهي من القساوة والحياد التام بمكان ، لا تفرق فيه بين المحق والمبطل ، والشريف والوضيع .

ولكن الدعوة والرسالة - وهي الروح التي تقهر المادة ، وتسخر الأسباب ، وتستنزل النصر - تأتي بخوارق ومعجزات ، وطالما قهرت القاهرة ،

وفتحت الغالب ، وطالما خضعت الحكومات القاهرة ، ودانت الملوك الجبابة بقوة الدعوة والرسالة للمماليك والصعاليك ، وقد جربت ذلك هذه الأمة مرتين بوضوح في التاريخ :

مرة : لما خرج العرب من جزيرتهم إلى البلاد الرومية والفارسية في ثياب صفيقة مرقعة ، وفي نعالٍ وضيعة مخصوفة ، يحملون سيوفاً بالية الأجفان ، رثة المحامل ، على خيل قصيرة ، متقطعة الغرز ، وسرعان ما قهرت دعوتهم ورسالتهم وحياتهم الأمم الرومية والفارسية ، التي كانت كدمى كُسيت حلاًفاً فاخرة ، وأعواداً أسندت إلى الجدار ، لحرمانها من رسالة ، وقعودها عن دعوة ، وكان الانتصار في الأخير للرسالة على النظام ، وللروح على المادة ، وللمعنى على الظاهر .

ومرة ثانية : لما قهر التتر - ذلك الجراد المنتشر - العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وخضدوا شوكة المسلمين ، فلم تقم لهم قائمة ، ولم يقم في وجههم واقف ، وكاد المسلمون يصبحون أثراً بعد عين ، واستولى اليأس على قلوبهم حتى كان من الأمثال السائرة : « إذا قيل لك أن التتر انهزموا ، فلا تصدق » هنالك فعلت الدعوة الإسلامية فعلها ، ونفذت فيهم . فإذا القاهر يصبح مقهوراً ، وإذا الفاتح مفتوح لدين المفتوحين ، وإذا التتر يتلفظون بكلمة الإسلام ، ويدينون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ويصبحون أمة إسلامية .

وإن الرسالة الإسلامية لتأتي بالمعجزات اليوم ، وتقهر الأمم طوعاً - لا كرهاً - بسلطانها الروحي ونفوذها العجيب .

إنَّ آباءكم - أيها السادة المسلمون - قد انتشروا في عواصم الجاهلية الأولى ، ومراكزها الكبرى ، يقولون : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » وخلصوا الأمة الرومية من عبادة المسيح ، والصليب ، والأحبار ، والرهبان ، والملوك ، وخلصوا الأمة الفارسية من عبادة النار ، وعبودية البيت الكياني ، والأمة الطورانية من عبادة الذئب الأبيض ، والأمة الهندية من عبادة

البقر ، وأخرجوها إلى عبادة الله وحده ، وأخرجوها فعلاً من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، والعالم ينتظر منذ زمان ، رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية ، يهتفون : « الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن ، إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس والأثرة والجشع المادي إلى سعة عالم القناعة والإيثار والزهد ، ونعيم الروح ، وطمأنينة القلب ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية ، إلى عدل الإسلام » .

هذه هي الدعوة التي تهيب بكم يا رجال العالم الإسلامي ، وهذه الإنسانية البائسة تستصرحكم وتستغيثكم على أعدائها ، وليس العالم اليوم بأقل ظمأ وأقل فاقة إلى الدعوة الإسلامية الصحيحة منه بالأمس ، وإنه لا يختلف عما كان عليه في القرن السادس المسيحي ، فهو غني اليوم في كل ناحية من نواحي الحياة ، وفي جميع الحرف والصناعات ، وقد ضاق بالأمم والحكومات ، وطفح بالأعلام والرايات ، وفاض بالحركات والدعوات ، وضجر بطغيان الأهواء والنزعات ، وثورة الأغراض والشهوات ، فهو في ذلك لا يقبل علاوة ، ولا يسمح بزيادة ، فإذا لم يكن المسلمون إلا أمة من الأمم ليست لهم دعوة إلى الله ، ولا رسالة للإنسانية المحتضرة ، ولم يكن لهم هم إلا أنفسهم وبطونهم ، لم يكن هنالك ما يبرر تاريخهم الماضي الذي افتتح بالدعوة الدينية والجهاد في سبيلها ، ولا يبرر وجودهم في هذا العصر ، فإنما نُصِرُوا ، واستبقوا بشريعة القيام بالعبادة ، والدعوة إليها .

والدعوة إلى الله هي الناحية الوحيدة التي لا تزال فارغة في خارطة العالم ، لا تشغلها أمة ولا دعوة ، فإذا عمرها المسلمون أحسنوا إلى الإنسانية وإلى أنفسهم ، وأمسكوا هذا العالم المتمدن الذي قد كاد يهوي في الهاوية .

إلى وزراء التربية في الدول العربية

ليست التربية إلا أداة مؤثرة وفيّة لترسيخ
عقيدة الأمة ، ونظرها إلى الحياة والكون
في قلوب الناشئة

انعقد في سنة ١٣٨٧هـ (١٩٦٨م) مؤتمر
وزراء التربية في الدول العربية في الكويت ، وطلب
من العلامة الندوي أن يقدم مذكرة إلى هذا المؤتمر
الموقر بصفته صاحب دراسات وتجارب وكتابات في
موضوع التربية ، فقدّم العلامة المذكرة التالية تلبيةً
للطلب .

حضرات أصحاب المعالي وزراء التربية في الدول العربية الموقرة !

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فأنتهز فرصة اجتماعكم في البلد الإسلامي العربي العزيز ، الكويت ، لدراسة القضايا التعليمية في الحكومات العربية ووضع مخططات لها ، فأقدم إليكم هذه الرسالة كمعنيّ بموضوع التعليم في الأقطار الإسلامية والشرقية ، وكعضو متواضع في هذه الأسرة الكريمة التي تلتقي على صعيد الإسلام ، وعلى صعيد الاهتمام بشؤون العالم العربي ، وعلى موضوع التعليم ، أرجو أن تحظى بعنايتكم .

لقد أصبح من المقرر في كل بلد واع حريص على سلامته وشخصيته ، أن المعارف ليست إلا جهازاً يغرز المعاني والأسس التي يؤمن بها هذا الشعب ودرجت عليها أجياله ويعيش بها وفيها ، في التاريخ الماضي وفي العالم المعاصر ، فمن أول واجبات نظام التعليم في جميع البلاد المتمدّنة الواعية أن يغرز هذه العقائد والحقائق في قلوب الناس ويغذيها حتى يؤمن بها كحقائق علمية ويتحمس في سبيل الدعوة إليها والمثابرة عليها ، وقد أصبح من المقرر عند أساطين التعليم الحديث في الغرب أن كل شعب من شعوب العالم إنما يصوغ نظامه التعليمي وفق نظرية الحياة التي يؤمن بها ، فيقول Sir Perey Neinn الذي يحتل الصدارة في خبراء التعليم في بريطانيا في مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية :

« لقد سلك الناس مسالك مختلفة في التعريف بالتعليم ، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً أن التعليم هو الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها .

إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة وتربي التلميذ تربية تمكنه من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمدّ يده إلى الأمام » .

إن جون ديوي (John Dewey) الذي كان تأثيره في نظام التعليم الأمريكي أكبر من تأثير كل رجل في هذا العصر ، يقول في كتاب « الديمقراطية والتربية » Democracy And Education : « إن الأمة إنما تعيش بالتجديد ، وإن عمل التجديد يقوم على تعليم الصغار ، إن هذه الأمة بطرق متنوعة تكون من الأفراد الأميين ، ورثة صالحين لوسائلها ونظرية حياتها ، وتصوغهم في قوالب عقائدها ومناهج حياتها » .

ويقول البروفيسور كلارك (Prof Clark) : « مهما قيل في تفسير المعارف ، فمما لا محيص عنه أنه سعي للاحتفاظ بنظرية سبق الإيمان بها وعليها تقوم حياة الأمة ، وجهاد في سبيل تخليدها ، ونقلها إلى الأجيال القادمة » .

لذلك ليس من المعقول ولا من الجائز أن تستورد أمة لها شخصيتها ورسالتها ولها عقائدها ومناهج حياتها ، ولها طبيعتها ونفسياتها ، ولها تاريخها وماضيها ، ولها محيطها الخاص وظروفها الخاصة ، نظاماً تعليمياً من الخارج ، ولا أن تكل وظيفة التعليم والتربية وتشئة الأجيال وصياغة العقول ، إلى أناس - مهما بلغوا من البراعة في تدريس مواد تعليمية ، وإتقان اللغات والفنون - لا يؤمنون بهذه الأسس والعقائد ولا يتحمسون لشرحها وتعضيدها ، ويقول الأستاذ الأمريكي الدكتور (Dr. J. B. conant) في كتابه « التعليم والحرية » : (Education And Liberty) : « إن عملية التعليم ليست عملية تعاط وبيع وشراء ، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل ، إنما في فترات من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية أو الأوربية (إلى بلادنا الأمريكية) » .

وعلى هذا الأساس يتفق المعسكران الشرقي والغربي ، وقد سبق من أقوال خبراء التعليم وقادة الفكر في أوربة وأمريكا ما دل على وجهة نظرهم إلى المعارف ، وأنها ليست إلا أداة مؤثرة و فية لترسيخ العقيدة ونظر الأمة إلى الحياة والكون وتعميق جذورها في قلوب الناشئة ونفوسها ، ونقل التراث العقلي والعقائدي والاجتماعي إلى الأجيال القادمة ، وإقناعها بضرورة الاحتفاظ بها ، والمثابرة عليها ، والجهاد في سبيلها .

فأما المعسكر الشرقي الذي اشتهر بالثورة على الأسس والقيم ونقض القديم وبلبله الأفكار ، فإنه ليس أقلّ تمسكاً بهذه النظرية ، نظرية التطبيق بين التعليم والعقيدة التي يختارها ، والفلسفة التي آمن بها ، وإخضاع نظام التعليم كله لهذا الغرض وصوغه في قالبه صياغة دقيقة متقنة من المعسكر الرأسمالي المنافس ، فيقول عالم طبيعي من كبار علماء البلاد السوفيتية (Mc Govern) :

« إن العلم الروسي ليس قسماً من أقسام العلم العالمي ، إنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف ، فإن سمة العلم السوفيتي الأساسية أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة ، إن التحقيقات العلمية لا تزال في حاجة إلى أساس ، وإن أساس علومنا الطبيعية : الفلسفة المادية التي قدمها « ماركس » و « أنجلس » و « لينين » و « ستالين » ، إنا نريد أن نخوض - وفي أيدينا هذه الفلسفة - في معترك العالم الطبيعي العالمي ونصارع جميع التصورات الأجنبية التي تناهض فلسفتنا المادية الماركسية بكل عزم وقوة »^(١).

ومن المآسي التي تحيّر العقل وتجرح القلب أن تظل الأقطار الإسلامية وحدها في فوضى تعليمية وغموض والتباس ، بل في تناقض ومصارعة بين العقائد والحقائق التي تؤمن بها والغايات والأهداف التي خلقت لأجلها ، والرسالة والدعوة التي تحتضنها وبين نظام التعليم الذي تطبّقه ، والنظريات التي تستوردها ، والأساتذة الذين لا يؤمنون بها ، وعلى الأقل لا ينشطون في تدعيمها وتنميتها ، ولا تفكر في التطبيق بين العقيدة التي تتمسك بها وبين التعليم الذي تنفق عليه أكبر جزء من إمكانياتها ووسائلها ، مع أنها كانت بحملها الرسالة الأخيرة والعمل الأخير للإنسانية ، أجدر بهذا التطبيق وأحرص على إزالة جميع العناصر التي تجني على شخصيتها وبمقومات حياتها ومستقبل أجيالها ، وأغير على عقيدتها ودينها من الشعوب الغربية ، بما فيها الشيوعية والرأسمالية ، والتي تتناولها دائماً بالتغيير والتحوير ، وتعيش هذه الأقطار متطفلة على مائدة الأمم الأجنبية والنظم الدخيلة ، تقتبس منها ، وقد تطبقها

بحذافيرها ، ولم تفكر إلى الآن في إخضاع جهاز التعليم لرسالتها السماوية وعقائدها الثابتة وعلومها المعصومة عن الخطأ والضلال ، وإزالة جميع العقبات في سبيل هذا الوثام والتعاون بين العلم والدين ، وتتصارعه القوى المضادة ، والموجهون المتنافرون ، ويسيطر عليها الفصام النكد بين العلم والدين والصراع المستमित بين الحقائق الغيبية والمحسوسات المادية ، وبين الإيمان والشك ، وبين الإسلام والنفاق ، وبين الخلق والثبات ، والاستغلال والانتهازية .

وقد شعر بضرورة ذلك بعض علماء الغرب المنصفين ، فقال أحد كبار أساتذة الإسلاميات في أمريكا (Charles L. Gedder) في كلمته التي ألقاها في ١٣/مايو عام ١٩٦٦م في كراتشي :

« إن الإسلام يملك جميع الخصائص التي تستطيع أن تنشر السلام والانسجام في العالم ، إن الغرب يؤمل من المسلمين الذين يحملون الدين الذي أنزله الله ، وكان لهم ماضٍ مجيد مشرق ، أن يقدموا مبادئ الحياة وفلسفتها إلى الغرب ، وبذلك يستطيعون أن يحملوا راية الإسلام التي عينت لهم في عالم الغد » .

وذلك لا يكون إلا بإنشاء الجيل المؤمن المثقف الذي يجمع بين العقيدة والعلم ، ويؤمن بخلود رسالته وصلاحياتها لكل جيل وعصر ، وأنها هي المنقذة للعالم من النهاية الأليمة التي ترتقبه ومن المستنقع الذي يتردى فيه ، وذلك لا يمكن كما لا يخفى إلا بوجود نظام للتربية يقوم على تطبيق بين العقيدة والثقافة ، وبين قوة العاطفة وإشراق الروح والتهاب جذوة الإيمان ، وبين العلم الواسع والفكر النير ، ومعرفة أحدث ما وصلت إليه الأجيال البشرية من تجربة واكتشاف *

وقد بدأت عملية تطوير المناهج لهذا الغرض وسبك منهج تعليمي جديد يتغلغل في أحشائه الإيمان بالله ويسيطر على جميع فروعهِ وجزئياته ، بعض الأوساط العلمية في الشرق ، اضرب مثلاً بما يقوم به صديقنا الفاضل الدكتور

رفيع الدين^(١) ، رئيس مجمع إقبال في كراتشي سابقاً ، وأقدم إلى معاليكم بعض النشرات التي صدرت من المؤسسة التي أسسها ويقوم بإدارتها .

إنه مشروع ضخم يتطلب ثورة في التفكير ومغامرة في المساعي والجهود ، ومثابرة تنهك القوى وتستنفذ المجهود ، ولكنه عمل تجديدي من أعمال الإصلاح والتربية ، وأكبر خدمة للإسلام والمسلمين في هذا العصر ، والذي يقوم به يستحق شكر الأجيال القادمة ، وأردد قول بديع الزمان الهمذاني ، وأقول : « إنه فتح يتضاءل أمامه الفتوح وتثني عليه الملائكة والروح » والعالم الإسلامي يتطلّع إلى العملاق الذي يقوم بهذا العمل ، فإنه يؤثّر في مصير هذه الأمة ما لا يؤثّر غيره .

وأقدم إليكم العناصر التي تنافي هذه الغاية وترزأ هذه الأمة في شخصيتها وكيانها وسلامة تفكيرها :

١ - استيراد المناهج الدراسية والمواد التعليمية من الخارج .

٢ - استيراد الأساتذة والمعلمين من أوربة وأمريكا ، الذي أقل ما يقال فيهم أنهم لا يستطيعون بحكم عقيدتهم وفلسفة حياتهم وثقافتهم الأجنبية أن يخلصوا في إنشاء الجيل الجديد ، على العقيدة الإسلامية والعقلية المؤمنة ، ويتحمّسوا في تبليغها وإقناع التلاميذ بها .

٣ - إرسال البعث إلى الخارج للتوشّع في الدراسات والتضلّع من اللغات ، إن هؤلاء الشباب الغض الطري الذين لم ترسخ فيهم العقيدة ولم تنشأ فيهم روح المقاومة والصمود ، يخضعون للمحيط الأجنبي القاهر الذي لا يثبت فيه إلا النادر من الأقوياء المحنكين ويفقدون شخصيتهم ويعودون إلى بلادهم مضطربين حائرين ، إذا لم نقل مارقين منافقين ، يحدث ذلك اضطراباً في المجتمع وصراعاً في الفكر وقدوة غير صالحة ، وقد بدت طلائعه في

(١) مع الأسف الشديد مات الدكتور قبل أن يكمل مهمته في حادثة في كراتشي سنة ١٩٦٩م فكانت خسارة عظيمة في مجال الفكر الإسلامي والتخطيط التعليمي ، رحمه الله وأثابه .

المجتمع العربي الإسلامي .

٤ - الاهتمام الزائد باللغات وإعطاؤها أكثر من حقّها ، فإنها تنمو وتتوسّع على حساب اللغة العربية والمواد الإسلامية ، والإكثار من دراسة اللغات الأجنبية وتدرّس عدة لغات في وقت واحد قد أصبح موضع جدل وبحث عند خبراء التعليم ، خصوصاً في المراحل الابتدائية والمتوسطة وقد بدأ في كثير من البلاد الشرقية اتجاه إلى إقصاء اللغات الأجنبية عن مناهج التعليم في شيء من المبالغة والعصبية ، وقد قرر خبراء التعليم في بلادنا الهند التقليل من قسط اللغة الإنجليزية مع أنها قد أصبحت لغة التفاهم بين الولايات ولغة الصحافة والبرلمان ، وبلادنا العربية أحق بالغيرة على لغتها العربية المعجزة من هذه البلاد الشرقية الإسلامية وغير الإسلامية ، ويجب التفكير في هذه القضية من جديد أو تقرير شيء يقي هذه البلاد المقدسة التي هي منزل الوحي ومولد اللغة العربية ، من غزو هذه اللغات الأجنبية التي أصبحت تنافي لغة القرآن ولغة الأمم وتسحر عقول الشباب وتستهيئها استهواءً أصبح خطراً ملموساً في كل طبقة ومستوى .

٥ - إقصاء الأساتذة الذين يؤمنون بمذاهب دخيلة وفلسفات هدامة ولا يؤمنون بأن لهذه البلاد رسالة ودعوة ، وأن هذا الجيل الذي ينشأ في هذه المدارس هو وارث الجيل الإسلامي الأول الذي حمل مشعل الإسلام إلى الآفاق البعيدة ، واستمات في سبيل العقيدة والدعوة ، وإنه يرتجى منه أن يكون جيلاً مثالياً للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وإذا لم يكن لإنسان يؤمن بالمبادئ الإسلامية ويحمل دعوتها حق في أن يكون معلماً وموجهاً في مدرسة صغيرة في البلاد السوفيتية ، وإذا لم يكن لأكبر عالم شيوعي حق في أن يكون معلماً أو مديراً لمكتب أو شركة في أمريكا ، فكيف يجوز للأساتذة الذين لا يؤمنون بخلود الرسالة الإسلامية ، ونبوة محمد - ﷺ - ، وكونه رحمة للإنسانية ، ودينه سفينة نوح في كل عصر ، ولا يؤمنون بفضل الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لهذا العصر ، ولا يؤمنون بالقرآن ولا يؤمنون بالحاجة إلى الإيمان وهم دعاة مخلصون لمذاهبهم وفلسفاتهم ، من التعليم إلى

التربية أداة مؤثرة وفية لترسيخ عقيدة الأمة - إلى وزراء التربية في الدول العربية ١٤٣

الاقتصاد والسياسة والأخلاق ، كيف يجوز لهم أن يكونوا أساتذة مربين وقادة
موجهين في قلب العالم الإسلامي وفي معقل الإسلام وحصنه ، هذا شيء
لا يقبله عقل ولا منطق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المخلص

٢٧ رجب ١٣٨٧هـ

أبو الحسن علي الحسني الندوي

أمين ندوة العلماء العام لكهنؤ (الهند)

وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المعارف هي التي تصوغ البلاد صياغة جديدة

إن التربية والتعليم هما اللذان يقرّران مصير الأقطار الإسلامية ، ومستقبل الأجيال المسلمة ، وكان نظام التربية والتعليم في المملكة العربية السعودية موضع اهتمام وتفكير العلامة الندوي ، أكثر من كل بلد إسلامي عربي ، لأنها هي القائدة والقُدوة للعالم الإسلامي ، وكان العلامة يُثير اهتمام قادة هذه البلاد والموجهين لسياسة التربية والمُشرفين عليها بين آونة وأخرى ، ويُراسلهم ويتصل بهم .

وكان في مقدمتهم الوزير العالم الغيور الشيخ حسن بن عبد الله بن الحسن آل الشيخ (وزير المعارف والتعليم العالي سابقاً في المملكة) .

وقد كان بينه وبين العلامة صداقة وثيقة وعلاقة وطيدة ، وكان يولي كلما يكتب إليه العلامة اهتمامه ، ومن ضمن تلك الرسائل الموجهة إليه من العلامة هذه الرسالة ، التي جاءت فيها خواطره وتجاربه أوضح وأقوى ، وإلى القراء نص هذه الرسالة :

حضرة صاحب المعالي الشيخ حسن بن عبد الله بن الحسن وزير
المعارف ! قوّاه الله وأيّده بروح منه .
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد ، فأرجو أن تكونوا قد عدتم إلى مقركم عودة سالمة غانمة^(١) ،
وأهنتكم على سلامة الوصول ، وأحييكم تحية مباركة .

إن اهتمامي بشؤون هذه البلاد ، وقلقي للاتجاهات التي ستقرر مصيرها
دينيّاً وفكريّاً ، ومبدئياً لا يستغرب ، ولا يحتاج إلى شرح الأسباب ، فإنها
قلب العالم الإسلامي النابض ، وإنّ جميع الأقطار الإسلامية خاضعة لما
تتمخض به هذه البلاد ، والاتجاهات التي تغزوها ، وسلامة هذه البلاد من
كل اضطراع فكري ، وقلق نفسي ، ومن ضعف الثقة بخلود رسالة الإسلام
وجدارتها للقيادة ، ومن التحلل في الأخلاق ، من أهم الغايات ، وذلك
يجعل كل من يهتم بقضية هذه البلاد ، يركز فكره على المعارف لأنها هي
التي تصوغ البلاد صياغة جديدة ، وهي التي ستعطي المجتمع شكله
النهائي ، وقد أثر عن بعض الصالحين المهتمين بأمور المسلمين ، أنه قال :
« لو كانت لي دعوة مستجابة واحدة ، لخصصتها بها صاحب الأمر والنهي في
البلاد ، لأن صلاح المسلمين يتوقف على صلاحه » وأقول : لو كانت لي
دعوة مستجابة واحدة لصرفتها إلى وزارة المعارف ، ولدعوت الله لها بالتوفيق
والسداد والاستقامة ، والقوة والأيد ، ولو كان لي نفس واحد من الحياة
والنشاط ، لبذلته في إعانة هذه الوزارة والإسهام معها ، ولو اجتمعت ألف
قوى ومؤسسات ، وعبقريات على إفساد بلد ، وقد صلحت معارفه وعرفت
واجبها ، ورزقت العاملين المخلصين الأذكياء ، لما نجحت هذه القوة
المفسدة في تحقيق غايتها ، وإذا اجتمعت ألف قوى ومؤسسات ، وعبقريات

(١) كان في رحلة إلى أوربة عاد منها قريباً حين كتابة الرسالة إليه .

على إصلاح بلد ، وقد فسدت معارفه وضعفت ، لم تثمر جهودها .

إن العالم الإسلامي اليوم يواجه معركة واحدة ، وهي الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية بأوسع معاني كلتا الفكرتين ، والمملكة كذلك تخضع في قليل أو كثير لتأثير هذا الصراع العالمي ، ويزيد الأمر خطورة ودقة ، أنها في مرحلة انتقال ، انتقال من الأمية التي كانت تغطي على هذا الشعب الكريم الذكي النجيب ، (بحكم إهمال الحكومات السابقة وتفريطها في تثقيف البلاد) إلى التعلّم الشامل ، والثقافة الواسعة ، التي ينفق عليها بسخاء نادر ، وأريحية منقطعة النظير ، وانتقال من حياة بسيطة محدودة (أشبه بحياة القرون الوسطى) إلى حياة متطورة تطوراً سريعاً لا يعلم أحد مداه ، ومن هدوء يتصل بالركود والجمود ، إلى بحث وتطلّع ، وهذه المرحلة هي أدق المراحل في حياة الأمم وتاريخ البلاد ، وهي التي تحتاج إلى تصميم حكيم دقيق ، ونقد واسع عميق ، وإلى متعاونين مؤمنين مخلصين ، وموجهين ناضجين محنكين ، وإن أصغر زلة أو قصر نظر ، أو تهوّر في وضع المناهج أو اقتباس العلوم ، أو اختيار المعلمين ، أو جلب الأساتذة من الخارج ، الذين لا يؤمنون بالفكرة التي تسيطر على هذه الوزارة ، ولا يخلصون لها ، تهوي بهذه البلاد إلى هاوية لا قرار لها ، وإلى غاية لا رجعة منها .

لقد كان وجود معاليكم في مركز توجيه المعارف ، وعلى رأسها ، ضماناً لسلامة هذه البلاد من الأخطار التي تهددها ، فأنتم فرع دوحة الإصلاح والتجديد في الجزيرة ، وكل ابن كريم غيور على تراث جده وجهوده ، وكل بلد تنجح فيه المخططات التعليمية المادية أو العلمانية لا يستطيع أن يحتفظ برسائله الروحية العالمية وبمقدساته وشعاراته ، فلنا أمل كبير في شخصكم الكريم ، وفي غيرتكم على هذا الدين ، وعلى الجهود الإصلاحية التي قام بها أئمة المسلمين ودعاتهم ، وفي غيرتكم على شخصية هذه البلاد ، التي منحها مركزها من العالم الإسلامي ومن التاريخ الإسلامي ، وتجريدها من هذه الشخصية إفقادها قيمتها وأكبر مقوماتها ، وأكبر إساءة إليها ، وإنني مع بعدي عن البلاد المقدسة ، واضطلاعي بأعباء كثيرة ثقيلة ، أؤكد لكم استعدادي

للتعاون معكم في العمل العظيم الذي أخذتموه على عاتقكم ، وأكرمكم الله
بالنهوض به ، وأدعو لكم دائماً بالنصر والتأييد ، وأن يشدّ أزركم ، ويبارك في
حياتكم .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام *

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته *

الداعي المخلص

١٣٨٥/٢/٥ هـ

أبو الحسن علي الحسيني الندوي

١٩٦٥/٦/٦ م

• • •

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٥
ملاح من حياة العلامة السيد أبي الحسن على الحسنى الندوى وشخصيته	٧
خطابات صريحة	١٥
بين الجباية والهداية	١٧
شخصية البلاد المقدسة الفريدة ووجوب الاحتفاظ بها في جميع المخططات المدنية والتربوية والمشاريع التقدمية ووسائل الترفيه والترسلىة	٣١
مسؤولية أمراء العرب في أطراف الجزيرة والخليج العربى في المحافظة على سلامة البلاد ووحدتها الدينية	٣٧
تجربة التاريخ والأمم في إخفاق سياسة إطلاق العنان في الحرية والتمتع والترسلى والترفه ، وأن الطبقة المؤمنة المستقيمة وحدها جدرة بالثقة والاعتماد	٤٣
الخط الأخير في جبهة الوجود الإسلامى ووجوب حراسته ودرء الأخطار عنه	٥١
رسالة دعوية مخلصه	٥٩
رسالة مفتوحة	٦٧
رسالة تاريخية	٧١
رسالة مهمة	٧٩
نصائح مخلصه	٨٣
هاتى صلاح الدين ثانية فىنا	٩٣
صلة نظام التربية والتعليم بواقع المجتمع واتجاهاته وميوله	١٠١
الإنسانية تنتظركم أيها العرب	١١٣

الصفحة	الموضوع
١٢١	إلى مندوبي البلاد العربية والإسلامية
	ليست التربية إلا أداة مؤثرة وفيه لترسيخ عقيدة الأمة ونظرها إلى الحياة
١٣٥	والكون في قلوب الناشئة
١٤٥	المعارف هي التي تصوغ البلاد صياغة جديدة
١٥١	فهرس الموضوعات

١٥٢	فهرس الموضوعات
١٥٣	فهرس الموضوعات
١٥٤	فهرس الموضوعات
١٥٥	فهرس الموضوعات
١٥٦	فهرس الموضوعات
١٥٧	فهرس الموضوعات
١٥٨	فهرس الموضوعات
١٥٩	فهرس الموضوعات
١٦٠	فهرس الموضوعات
١٦١	فهرس الموضوعات
١٦٢	فهرس الموضوعات
١٦٣	فهرس الموضوعات
١٦٤	فهرس الموضوعات
١٦٥	فهرس الموضوعات
١٦٦	فهرس الموضوعات
١٦٧	فهرس الموضوعات
١٦٨	فهرس الموضوعات
١٦٩	فهرس الموضوعات
١٧٠	فهرس الموضوعات
١٧١	فهرس الموضوعات
١٧٢	فهرس الموضوعات
١٧٣	فهرس الموضوعات
١٧٤	فهرس الموضوعات
١٧٥	فهرس الموضوعات
١٧٦	فهرس الموضوعات
١٧٧	فهرس الموضوعات
١٧٨	فهرس الموضوعات
١٧٩	فهرس الموضوعات
١٨٠	فهرس الموضوعات
١٨١	فهرس الموضوعات
١٨٢	فهرس الموضوعات
١٨٣	فهرس الموضوعات
١٨٤	فهرس الموضوعات
١٨٥	فهرس الموضوعات
١٨٦	فهرس الموضوعات
١٨٧	فهرس الموضوعات
١٨٨	فهرس الموضوعات
١٨٩	فهرس الموضوعات
١٩٠	فهرس الموضوعات
١٩١	فهرس الموضوعات
١٩٢	فهرس الموضوعات
١٩٣	فهرس الموضوعات
١٩٤	فهرس الموضوعات
١٩٥	فهرس الموضوعات
١٩٦	فهرس الموضوعات
١٩٧	فهرس الموضوعات
١٩٨	فهرس الموضوعات
١٩٩	فهرس الموضوعات
٢٠٠	فهرس الموضوعات

Addressing Prince and President

Articles By:

Sayyid Abul Hassan Ali Nadwi

Edited and Reviewed By:

Sayyid Abdul Majid Ghouri

هذا الكتاب

يحتوي هذا الكتاب على تلك الرسائل التي وجهها العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي - رحمه الله - إلى بعض أمراء البلاد الإسلامية والعربية يلفت فيها أنظارهم إلى ضرورة التمسك بحبل الله، والتثبت بنبوة محمد ﷺ، والاستشارة بسير الخلفاء الراشدين، وإصلاح بلادهم، وإيجاد مجتمع مثالي فيها إلى أفضل حد ممكن، وسد الثغرات التي تحول دون تأييد الله ونصره، وإلى الإنابة إليه، والاستغفار منه.

ومن تلك الرسائل بعضها وجهه العلامة إلى رؤساء وزراء الهند، قدم فيها إليهم نصائحه المخلصة، وكلها جديرة بأن يقرأها قادة البلاد ورؤساء الحكومات والمسؤولون الإداريون والمثقفون المعاصرون.

(من مقدمة الكتاب)



دمشق - ص. ب. ٣١١

بيروت - ص. ب. ١١٣ / ٦٣١٨